علاقة الماء بالدم في الشعر العربي . . . رؤية تحليلية وصفية
"أبو الطيب المتنبي . . . نموذجاً"

دكتور / عطية محمد حسانين

مدرس الأدب والنقد بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أَحْمَدُكَ اللَّهُمَّ حَمْداً يَسْعَى بِي إِلَى جَنَّاتِكَ، ويَعنِّي على شكر آلائك ومرضاتك، وصل اللهم على خاتم أنبيائك صلاةً أَزْدَلِفُ بها إلى ثوابك غيرِ عقابك، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

مما لا شك فيه أن الماء عصام هذا الكون الممتلئ بأسراره العجيبة التي لا يقضى من أعاجيبها عَجَبٌ، وهو النظام الطبيعي الذي يجعل من قانونه سِرَّ هذه الحياة، فهو يحمل علاقة إنسانية فيها روح الإنسانية، دون أن يتطرق إلى الذهن أيُّ شيء يكدر صفو الحياة من مضامين الدم.

فالدَّمُ تَتَغَوَّلُ فيه الأفكارُ الخائفةُ الحزينةُ المُجَرِّحَةُ التي تُدْمِي القُلوبَ بُؤْساً، وتنحدر بالذهن إلى ظلمات الخوف، وخرافات الكهوف، وتهويل المُعَرْبِدِيْنَ في أغوار الثأر أو القتل أو الحرب أو السطو الذي تَتَلَوَّى معه النفوسُ الجائعةُ على شهواتها المُتَجَسِّدَةِ في فَرِيْسَتِهَا.

فالدَّمُ دائماً يُذَكِّرُ الإنسانَ بالألم أو الموت أو الخوف أو النَّدم، ولكنه السائل الوحيد الذي يشعر الإنسان بوجوده في نفسه ـ وإن شاركه الماء ـ فهو ينبض في قلبه، وهو يُؤلمُه عندما يكون جَرِيحاً، حينما تتساقط قطراتُه من جسده، وكأنه مطرٌ ،أو ماءٌ لونُه أحمرُ.

والماءُ يُذَكِّرُ الإنسانَ بشيء عَذبٍ طَاهِرٍ، نَقِيٍّ صَافٍ، يَرْوِي ولا يُرْوَى، يَسْقِي ولا يُسْقَى، أساسُ الحياة يشاركه في هذه الحقيقة الدم، ولكنه الأساس والأصل.

ولفظ الماء يشهد حضوراً واضحاً في الشعر العربي القديم، ساعد على حضوره تعددُ دلالاته ـ اللُّغويةِ والمَعْرِفِيَّةِ والدِّينِيَّةِ ـ وارتباط هذه الدلالات بالحقيقة حيناً وبالخيال حيناً آخرَ، فكان الماءُ محورَ حياة الإنسان إيجاباً أو

سلباً، أَقَامَ بِقُرْبِهِ المُدُنَ والحضاراتِ، وأَقَامَ بِقُرْبِهِ ومن أجله الحروبَ والغاراتِ.

ففي الشعر العربي القديم نلحظ حضور لفظ الماء مُرتبطاً بسياقات عدة تكشف عن علاقات تربط بين أكوان شعرية كثيرة التردد في قصائده فتتداخل مع الماء تلك العوالمُ التي ارتبطت في الثقافة العربية بالماء تشبيهاً به، أو وصولاً إليه، أو ذوْداً عنه، أو تحديداً لنوعه، تمثلت هذه الأكوان الشعرية في عوالم مختلفة الدلالات منها: الوجه والشبيبة والكرم والعطاء والسحاب والخيل والجياد والسيف.....صنع الماءُ من خلال الارتباط بهذه الأكوان الشعرية وشائجَ قويةً مكنته من الخروج عن حدود المعنى المعجمي إلى سعة المعنى الدلالي.

وبما أن الشعر القديم - ولا سيما شعرُ أبي الطيب - ما هو إلا معرض لأدوات القتال وصدىً لموسيقى الحرب ؛ فإن ارتباط الماء بهذه الجوانب فجر فيه معاني القوة ودلالاتها غير أننا نلمس بين الماء والدم علاقات أكثر قرباً تتبني على ما بينهما من تشابه في أن كليهما ذو قوام سائل، وكليهما وثيق الصلة بالحياة والموت ؛ لذلك أصبح للماء تداخلاً مع الدم، كما أن للدم تداخلاً مع الماء على النحو الذي تكشف عنه الدراسة المبنية على دلالات القوة والمنعة فقط لقربها من دلالة الدم.

ولقد تَرَفَّعْتُ عن شروح المعاني العامة، فما أكثر شروح ديوان أبي الطيب، وإنما عَمدْتُ إلى هذه العلاقة فقط ؛ لأتحاشى التكرار خوفاً من السآمة والملل من هذا العمل.

☒ المبحث الأول: الدلالات اللغوية والمعرفية والدينية:-

- **أولاً: دَلالاتُ الدَّمِ:** لقد تعددت دلالاته اللغوية والمعرفية والدينية، دار فلك هذه الدلالات حول معاني ومفاهيم متباينة أفضت إلى هذه العلاقة.

فلقد جاءت مادة (دَمِيَ)[1] عند ابن منظور اسماً على حرفين، قال أبو الهَيْثَمِ: الدَّمُ اسمٌ عَلَى حَرفَيْنِ، وقال الكِسَائِيُّ: لا أعرف أحداً يُثَقِّلُ الدَّمَ، فأما قولُ الهُذَلِيِّ [2]:

..... وتَشْرَقُ مِنْ تَهْمالِها العَيْنُ بالدَّمِ

فَهُوَ عَلَى أَنه ثَقَّل فِي الوَقْفِ فَقَالَ الدَّمُّ فشدَّدَ، ثُمَّ اضْطُرَّ فأَجْرى الوَصْلَ مُجْرى الوَقْفِ..... وَتَثْنِيَتُهُ دَمانِ ودَمَيانِ؛ قَالَ الشاعر[3]:

لعَمْرُك إنَّني وأَبا رَباحٍ عَلَى طُولِ التَّجاوُرِ مُنذُ حِينِ
ليُبْغِضُني وأُبْغِضُه، وأَيْضاً يَراني دُونَهُ، وأَراه دُوني
فلَوْ أَنَّا عَلَى حَجَرٍ ذُبِحْنا جَرى الدَّميانِ بالخَبَرِ اليَقِينِ

وأَما (الدَّمَوانِ) فَشَاذٌّ سَمَاعًا.... وَالْجَمْعُ دِماءٌ ودُمِيٌّ، وهذه الجموع تدل على أنَّ لامَ مُفردِهِ مَحذوفَةٌ، وليس اسْماً على حَرفَيْنِ، قَالَ سِيبَوَيْهِ: الدَّمُ أَصله دَمْيٌ عَلَى فَعْلٍ، بِالتَّسْكِينِ، لأَنه يُجْمع عَلَى دِمَاءٍ ودُمِيّ.... قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: الدَّمُ أَصله دَمَوٌ، بِالتَّحْرِيكِ، وَإِنَّمَا قَالُوا دَمِيَ يَدْمَى لِحالِ الْكَسْرَةِ الَّتِي قَبْلَ الْوَاوِ كَمَا قَالُوا رَضِيَ يَرْضَى وَهُوَ مِنَ الرِّضوان. قَالَ ابْنُ بَرِّيٍّ: الدَّمُ لامُه يَاءٌ بِدَلِيلِ قَوْلِ الشَّاعِرِ:(جَرَى الدَّمَيان). وَلقدْ جَمَعَ المُتَنَبِي (دَامِي) عَلَى (دَوَامِي) لِغَيْرِ العَاقِلِ،

(١) اللسان : (دَمِيَ).
(٢) صدر البيت :(**إذا ذَكَرتْه العَيْنُ أغْرَقَهَا البُكَا**). نسبه صاحبُ خزانة الأدب ولب لباب العرب ، البغداديُّ لخِرَاش بنِ المَذكُور ٧٩/٥ ، تحقيق/ عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي - القاهرة ، ط٤ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
(٣) الأبيات مختلف في نسبتها كثيراً، ولكن هي للمثقب العبديِّ في الحماسة البصرية ، لأبي الحسن البصري ٤٠/١، عالم الكتب - بيروت (د/ ط، ت).

فَقَالَ[1]:

رَمَـــوا بِنَواصـــيها القِـــسِيَّ فَجِئنَهـــا دَوامـــي الهَـــوادي ســـالِماتِ الجَوانِـــبِ

وَلقدْ جَاءَ أبو العلاء في شرحِ هذا البيتِ بجمعِ المؤنَّثِ السَّالِمِ لـ " دَامِيَةٍ "، فقال:"رَمُوا بِنَواصِي خَيلِهم القَسِيَّ فَوَصَلْنَ إلَى القَسِيِّ **داميات** الأعْنَاقِ[2] "

وَقَالَ الْمُبَرِّدُ: أَصله فَعَلٌ وَإِنْ جَاءَ جَمْعُهُ مُخَالِفًا لِنَظَائِرِهِ، وَالذَّاهِبُ مِنْهُ الْيَاءُ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهَا قَوْلُهُمْ فِي تَثْنِيَتِهِ دَمَيان، أَلا تَرَى أَن الشَّاعِرَ لَمَّا اضْطُرَّ أَخرجه عَلَى أَصله فَقَالَ الْحُصَيْنُ بْنُ الحُمَام المُرِّيّ[3]:

فَلَسْنا عَلَى الأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُومُنا ولَكِنْ عَلَى أَعْقابِنا يَقْطُرُ الدَّما

وَتَصْغِيرُ الدَّمِ دُمَيٌّ، وَالنِّسْبَةُ إِلَيْهِ دَمِيٌّ، وَإِنْ شِئْتَ دَمَوِيٌّ. وَيُقَالُ: دَمِيَ الشيءُ يَدْمى دَمىً ودُمِيّاً فَهُوَ دَمٍ [4].

أما من الناحية المعرفية: فهو مادة سائلة حمراء، أو شديدة الحمرة، تحمل كل الأحاسيس والمشاعر، تحمل معنى الحياة كما تحمل معنى الموت ؛ لذلك كانوا يعبرون به عن القتل والثأر، فيقولون (دم فلان).

وفي حَدِيثِ قَتْلِ كعْب بْنِ الأشْرف «إِنِّي لأسْمَع صَوتاً كَأَنَّهُ صوتُ دَمٍ»

---

(1) شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ، **المعروف بـ** " **معجز أحمد** " لأبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ)، تحقيق/عبد المجيد دياب ٤٣٨/٢، دار المعارف ، مصر ١٤١٣هـ . ١٩٩٢م.

(2) السابق الصفحة نفسها.

(3) البيت له في: ديوان المعاني لأبي هلال العسكري١١٥/١ ، دار الجيل- بيروت ، والشعر والشعراء، لابن قتيبة ، تحقيق/ حسن تميم ، ومحمد عبد المنعم العريان ، صـ ٤٣٧، دار إحياء العلوم - بيروت ، ط٢، ١٤٠٧هـ . ١٩٨٧م.

(4) اللسان (دمي).

أَيْ صوْتُ طَالِبِ دَمٍ يَسْتَشْفِي بقَتْلِه[1].

وكانوا يُعظِّمُونَه في الجاهلية، فَفِي حَدِيثِ الْوَلِيدِ بْنِ المُغِيرَة «والدَّمِ مَا هُوَ بِشاعِر[2]» يعْني النَّبِيَّ(ﷺ)، فهَذِهِ يَمينٌ كَانُوا يَحْلُفون بِهَا فِي الجاهليَّة، يَعْنون دَمَ مَا يُذْبحُ عَلَى النُّصُب. ولقد جاء في حديث عَبدِ اللهِ بنِ أمِّ مَكتُومٍ في حَضْرَةِ النبي(ﷺ) « لا وَالدِّمَاءِ [3]» أي دِمَاء الذَّبَائِح.

ولقد ورد لفظ الدم في القرآن الكريم مرات عديدة،**الأولى:** في تحريم الميتة والدم والحم الخنزير[4]، قال تعالى:﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ **والثانية:** تظهر في معجزة من معجزات الأنبياء، فيقول المولى ﷻ[5]:﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾،ولقد ورد في تفسيرها عند الطبري: أنه إذا أراد أن يشرب الرجلُ من آل فرعون ماءً وجده دماً [6]. ففي هذه الآية نستكشف العلاقة التبادلية بين الماء والدم، وحضور ماهية أحدهما في الآخر ؛ لما بينهما من أشياء تتباين

---

(1) صحيح مسلم ١٤٢٥/٣ (باب قتل كعب بن الأشرف) ، والسنن الكبرى للنسائي ٣٥/٨ ، والنهاية في غريب الحديث والأثر ١٣٦/٢.

(2) النهاية في غريب الحديث والأثر ١٣٦/٢.

(3) موطأ الإمام مالك ٢٠٣/١، تحقيق/ محمد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٠٦هـ . ١٩٨٥م.

(4) هذا التحريم جاء في سورة البقرة آية ١٧٣ ، وفي سورة المائدة آية ٣، وفي سورة النحل آية١١٥ ، ولقد عَدَدْتُ هذه المراتِ واحدةً ، لأنها تتناول قضية واحدة وهي قضية التحريم.

(5) سورة الأعراف آية ١٣٣.

(6) من حديث ابن عباس « كان الرجل من بني إسرائيل يركبُ مع الرجل من قوم فرعون في السّفينة، فيغترف الإسرائيلي ماءً، ويغترف الفرعوني دمًا ».تفسير الطبري، تحقيق/ أحمد محمد شاكر ٦٢/١٣، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، ١٤٢٠هـ . ٢٠٠٠م.

وتختلط، ويرمي بعضُها في بعض حتى يصبحا شيئاً واحداً، ونجد هذا الاختلاط في أقول الشعراء أيضاً[1]، **والثالثة:** تتجلَّى في قدرة الله تعالى التي من الصعب أن ندرك كيف تكون وكيف الخلاص في قوله ﷻ:[2] ﴿....مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾، **والرابعة:** وردت في تعظيم شعائر الله وحُرماته، قال[3] ﷻ:﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا..... ٣٧﴾.

فلفظ الدم لم يرد في القرآن الكريم يحمل معنى: الموت أو فقدان الحياة أو السفك إلا مُتَخَفِّياً وراءَ مادة " القتل " ومُشتقاتِها، قال ﷻ[4]:﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ.....٣٠ ﴾ ، وقوله ﷻ[5]:﴿ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ... ١٥٧﴾، وغير ذلك من الآيات.

ولقد لاحظ المصريون القدامى هذا الاختلاط والترابط بينهما فأطلقوا على إحدى مدنهم اسم " دَمَنْهُور"[6] ،فربما أصل تسميتها (دَم . نُهُور)،جَمْعُ "نَهْر[7]" مما يثبت قدم هذه الترابط في الحضارة المصرية.

فالدم في نفس الإنسان هو الاتصال الفعال للحالة النفسية التي تشغل الجانب العاطفي باعتباره الحياة التي تتوارى مادتها في النفس ؛ لذلك راعى الأطباء وعلماء النفس حالة الإنسان النفسية، فدائماً ما نسمع أن السكر المتعلق

---

(1) قال المتنبي : **وَمِن أَيِّ ماءٍ كانَ يَسقي جِيادَهُ ** وَلَم تَصفُ مِن مَزجِ الدِماءِ المَناهِلُ** معجز أحمد ٣٥٧/٣.

(2) سورة النحل آية ٦٦.

(3) سورة الحج آية ٣٧.

(4) سورة المائدة آية ٣٠.

(5) سورة آل عمران آية ١٥٧.

(6) بفتح أوله وثانيه ثم نون ساكنة، وهاء، وواو ساكنة، وآخره راء مهملة: بلدة بينها وبين الإسكندرية يوم واحد في طريق مصر، متوسطة في الصغر والكبر، معجم البلدان ٤٧٢/٢.

(7) اللسان مادة (نهر).

بالدم قد يظهر . كمرض . بسبب حزن شديد . مثلاً لذلك من الخطأ أن نجعل الدم بمَعْزِلٍ عن الحالة النفسية للإنسان.

- **ثانياً: دَلالاتُ المَاءِ**:لقد تعددت دلالات الماء أيضاً اللغوية والمعرفية والدينية والتفَّت حولَ هذه الدلالات معتقداتٌ وعاداتٌ مُتشعِّبةً فِكراً ووجداناً وسلوكاً، تداخلت هذه الدلالات حيناً وتباينت حيناً آخر، ثم حالت جميعها إلى عالم متماسك متشابك متضاد، يدور حول هذه المادة السائلة (الماء)، تختلط في هذا العالم الحقيقة بالوهم، والخيال بالأسطورة.

فمن الناحية اللغوية نجد في مادة (مَوَهَ) عند ابن منظور: الماءُ والماهُ والماءةُ، وَحَكَى بَعْضُهُم اسْقِني مَا، مَقْصُورٌ، عَلَى أَن سِيبَوَيْهِ قَدْ نَفَى أَن يَكُونُ اسمٌ عَلَى حَرْفَيْنِ أَحدهما التَّنْوِينُ، وهمزةُ ماءٍ مُنْقَلِبَةٌ عَنْ هَاءٍ بِدَلَالَةِ ضُروبِ تَصَارِيفِهِ وجَمْعِهَا عَلَى (أَمْوَاه) في القلة، قال المتنبي[1]:

ولو أنّ الذي يخِرّ من الأمْـ .م. ـواهِ فيها من فِضّةٍ بَيضاءِ

وجَمْعِهَا عَلَى(مِيَاهٍ) في الكثرة، قال المتنبي[2]:

فقد أرِدُ المياهَ بغيرِ هادٍ سِوَى عَدِّي لها بَرْقَ الغَمَامِ

وتَصْغِيرَهُ يكون على (مُوَيْه)، فالذي ذهب لام الكلمة وأنَّها الهاء، وجاءت الهمزة بدلاً منها، يقول المكزون السنجاري (ت٦٣٨هـ) [3]:

واسْتَهَامَ الصِّينُ عَن أنهَارِهَا بِسَرابٍ ظَنَّهُ الظَّامِي مُوْي

---

(١) " **معجز أحمد** " لأبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ) ٣٦/٤.

(٢) السابق ١٣٦/٤.

(١) ديوان المكزون السنجاري ، تحقيق/ هاشم عثمان ، صـ ١٣٩، منشورات مؤسسة النور للمطبوعات ، بيروت (د/ ط ، ت).أصلها: مويه ، ولكن حذفت من أجل الوزن، وهي ضرورة مقبولة.

وَفِي الْحَدِيثِ: « كَانَ مُوسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، يغْتَسِلُ عِنْدَ مُوَيْهٍ [1] »؛وهُوَ تَصْغِيرُ مَاءٍ،وأَصل الْمَاءِ (ماهٌ)، وَالْوَاحِدَةُ (ماهةٌ) و(ماءةٌ) في التأنيث، ويُنسَبُ إليه فيقال (مائِيٌّ،وماوِيٌّ، ومَاهِّي) [2].

أما الدلالة المعرفية: فالماء مادة سائلة شفافة لا لون لها ولا رائحة، تتلوَّن بغيرها، تشارك كل شيء في فترة التكوين والنشأة، فهو الماهية لرجوع كل شيء إليه.

وقد ذكر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) ذلك فقال: " إنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيءٍ إلا وَفِيهِ مَاءٌ، أو قَد أصَابَهُ مَاءٌ، أو خُلِقَ مِنْ مَاءٍ [3]".

وتتظافر الروايات الدينية مع تعريفات اللغة لهذه المادة (الماء) لتؤكد هذه الحقيقة، فقد ورد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال:" لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَخْلُقَ الْمَاءَ، خَلَقَ مِنَ النُّورِ يَاقُوتَةً خَضْرَاءَ، لا يَعلمُ طُولَها وعَرضَها إلا هُو سُبحَانَه وتَعَالَى، ثُمَّ دَعَاهَا، فَلَمَّا أَنْ سَمِعَتْ كَلَامَ اللَّهِ ﷻ ذَابَتِ الْيَاقُوتَةُ حَتَّى صَارَتْ مَاءً، فَهُوَ مُرْتَعِدٌ مِنْ مَخَافَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَاضطرَبَ الماءُ، فَخَلَقَ الرِّيحَ فَوَضَعَ الْمَاءَ عَلَى الرِّيحِ، ثُمَّ خَلَقَ الْعَرْشَ، فَوَضَعَ الْعَرْشَ عَلَى مَتْنِ الْمَاءِ [4]"، وعليه قوله ﷻ[5]:﴿ **وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ**

---

(٢) النهاية في غريب الحديث ٣٧٣/٤.

(٣) اللسان (مَوَهَ).

(٤) الحيوان ، للجاحظ ، تحقيق/ عبد السلام هارون ، مج ٣ ، ١٤٢/٥ ، ط٥ ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، سنة ١٣٨٦هـ . ١٩٦٦م.

(١) ينظر :العظمة ، لأبي محمد عبد الله بن حيان الأنصاري المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني (ت٣٦٩هـ) المحقق: رضاء الله المباركفوري، ٥٤٦/٢ ، ٥٤٧، دار العاصمة – الرياض ط١،، ١٤٠٨هـ.، وينظر: المستطرف في كل فن مستظرف ، للأبشيهي شهاب الدين ، تحقيق/ عبد الله الطباع ، صـ ٣٧١، دار العلم للملايين ، بيروت (بدون).

(٢) سورة هود:آية ٧.

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ..... ﴿٧﴾ ﴾.

ولنؤكد هذه الرواية نسوق ما ذكر في: تاريخ الخميس عن خلق السموات والأرض من الماء حيث جاء فيه " لما أراد الله ﷻ أن يخلق السماوات خلق جوهرة مثل السماوات السبع والأراضين السبع ثم نظر إليها نظرة هيبة فصارت ماء، ثم نظر إلى الماء فَعَلا وارتَفَعَ له زُبدٌ ودُخانٌ، فخلق من الزبد الأرض ومن الدخان السماء.....فخلق الله الأرض في موضع بيت القدس كهيئة نهر عليه دخان أي جوهر ظلمانيّ ملتزق بها، ثم صعد منها دخان وخلق منه السموات، وأمسك النهر في موضعه وبسط منه الأرض(١)".

ويؤكد هذه الروايات جميعها قوله(٢) ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾، فمنه خُلِقَ الإنسانُ والحيوان وكافَّةَ المخلوقات، قال ﷻ(٣): ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ..... ﴿٤٥﴾ ﴾، ومن خلال الماء أدرك الإنسان قدرة الله الفاعلة التي تَجَلَّتْ من خلال خلق الإنسان، قال ﷻ(٤): ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ ﴾، وقوله ﷻ(٥): ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا..... ﴿٥٤﴾ ﴾، كما تتجلَّى قدرة الله تعالى أيضا من خلال إعادة الخلق و الإحياء بالماء بعد الموت، قال ﷻ (٦): ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

أدرك الإنسان هذه الحقائق – حقيقة خلقه من الماء وبدايته ونهايته

(٣) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس ، للإمام الشيخ/ حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري ٣١/١ ، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع ، بيروت (بدون).
(٤) سورة الأنبياء ، آية ٣٠.
(٥) سورة النور ، آية ٤٥.
(٦) سورة الطارق ، الآيات (٥-٧).
(١) سورة الفرقان ، آية ٥٤.
(٢) سورة الزخرف ، آية ١١.

وماهيته منه– كما وجد فيه مرآة تعكس صورته إذا نظر إلى صفحته، وتعكس داخله إذا قاس على دلالته، أدرك آثاره في الوجد إيجاباً أو سلباً، وعرف أن في وجوده حياة وفي عدمه أو كثرته موتاً وفناءً، لأنهم يتواعدون عنده على الحياة كما يتواعدون عنده على الموت والفناء، صوَّرَ ذلك الشعراء وظهر على ألسنتهم، قال زهير [١]:

ثـــمّ اسْـــتَمَرُّوا وَقَـــالُوا إنَّ مَوعِـــدَكُمْ مـــاءٌ بـــشرقيِّ سَـــلْمَى فَيْـــدُ أَوْ رَكَـــكُ

وقال أيضاً [٢]:

فَلَمّـــا وَرَدْنَ المـــاءَ زُرْقـــاً جِمامُـــهُ وَضَـــعْنَ عِـــصيَّ الحاضِـــرِ المُتَخَـــيِّمِ

لذا عرف العربُ لأجل الماء وحمايته نظامَ الحمى والنَّجْعَةِ، وعاشوا من أجله حروباً طاحنة، ورحيلاً أبدياً، وحرماناً أزليّاً، لذا قيل[٣]:

أَرَادَ طُفَيْـــلُ يَمْنَـــعُ المَـــاءَ زَلَّـــةً ولـــم يَـــكُ رَأيـــاً مَنْعُـــه المِـــاءِ لَـــوْ عَقَـــلْ
فَفَارَقَـــتْ البِـــيْضُ الحِقَـــافُ غُمُودَهَـــا ولاحَـــتْ بِأيـــدِيهم مَـــصَابِيحُ كَالـــشُّعَلْ
حَـــسِبْتُ رَجَـــالاً أنْ تِجـــفَّ حُلُـــوقُهم وأنـــتَ عَلَـــى رَأي وفـــي رَاحِهـــا الأَسَـــلْ

وتزاحم عليه الورَّادُ حتى شغل الشعراءَ زحامُهم الذي يُفضي أحياناً إلى الدم، قال المتنبي[٤]:

---

(٣) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى ، صنعة أبي العباس ثعلب ، تحقيق/ حنَّا نصر الحتي ، صـ ١٣٩ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، سنة ١٤١٢هـ . ١٩٩٢م.

(٤) السابق ، صـ ٣٩.

(٥) الهمدانيون شعر همدان وأخبارها ، تحقيق/ حسن أبو ياسين ، صـ ٣٠٨، دار العلوم، الرياض ، سنة ١٩٨٣م.

(١) معجز أحمد ٣٩٨/٢.

وأن تـــرِدَ المـــاءَ الـــذي شـــطرُه دمٌ فتـسْقي إذا لـم يـسْقِ مـن لـم يُـزاحمِ

وانعكست هذه المفاهيمُ جميعُها على تفكير الإنسان، ولازمت عقله، وأوحت له بمجموعة من الأساطير والمعتقدات، فظهرت لنا فكرة " السُّقيا" للميت، إمَّا طلباً لما يحمله الماء من دلالات الرحمة والنقاء والطهر وطيب العيش لساكني القبور، وإمَّا إرضاءً للهامة والصدى، لذا قال حاتم الطائي مخاطباً زوجته مَاوي[1]:

أَمَـــاويَّ إنْ يُـــصْبِحْ صَـــدَايَ بِقَفْـــرَةٍ مِـــنَ الأَرْضِ لاَ مَـــاءٌ لَـــدَيَّ وَلاَ خَمْـــرُ
تَـرَى أنَّ مَـا أَهْلَكْـتُ لَـمْ يَـكُ ضَـرَّني وأنَّ يـــدَاي مِمَّـــا بَخِلْـــتُ بـــهِ صِـــفْرُ

وأخذ من قوله النَّمِرُ بْنُ تَوْلَبٍ الصحابي، فقال[2]:

أَعَـــاذِلَ أن يُـــصْبِحَ صَـــدَايَ بقفـــرةٍ بَعِيـــداً نَـــآنِي صَـــاحِبِي وقَرِيبِـــي
تَـــرَى أنَّ مَـــا أبقَيْـــتُ لـــم أكُ ربَّـــهُ وأنَّ الَّـــذي أَمْـــضَيتُ كَـــانَ نَـــصِيبي

لذلك ذُكِر الماء في المرثية العربية في الدعاء بالسقيا، وبقيت بعضُ عاداتهم منها: الثأر لتهدئة صداه، كان في زعمهم أن المقتول كالطائر يصيح: اسقوني، اسقوني، ولا يهدأ حتى يثأروا له، ومنها: سكب الماء على القبر، أو في أثر الرَّاحل [3]، ولا ترتبط الصدى وسقياها بالقتل والثأر وإنما ترتبط بالموت

(٢) ديوان حاتم الطائي، تحقيق/ سليمان جمال ، صـ ١١، مطبعة المدني – القاهرة، ١٩٧٥م.
(٣) البيان والتبيين أ للجاحظ ، تح/ عبد السلام هارون ٢٨٤/١، ط٤، مطبعة الخانجي١٩٧٥م.
(١) ينظر: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها ، محمد عجينة ، صـ ٢٥٩، دار محمد علي للنشر– دار الغاربي – بيروت، ط٢ ، سنة ٢٠٠٥م.

عامة، من ذلك قول أحدهم يرثي امرأته[١]:

سَـــقَى جَـــدَثاً تَـــضَمَّنَ أمَّ عَمْـــرُو بِنَخْلَـــةٍ مَـــا اسْـــتَهَلَّ مِـــنَ الغَمَـــامِ
وَمَـــا لِـــلأرضِ أَسْتَـــسْقِي وَلَكِـــنْ لأصْـــدَاءٍ أَقَمْـــنَ بِـــهِ وَهَـــامِ

ومثله قول المتنبي[٢]:

فَأَصْـــبَحْتُ أَسْتَـــسْقِي الغَمَـــامَ لِقَبْرِهَـــا وَقَـدْ كُنْـتُ أَسْتَـسْقِي الـوَغَى وَالقَنَـا الـصَمَّا

وترتبط بالحياة أيضًا فلقد طلبها أبو الطيب لِنفسِهِ على سبيل المجاز، فقال[٣]:

سَـــقَانِي اللهُ قَبْـــلَ المـــوْتِ يَومـــاً دَمَ الأعْـــدَاءِ مِـــنْ جَـــوْفِ الجُـــرُوحِ

وطلبها الشاعر العَطَويُّ العباسي للأبي بكر صديقه فقال[٤]:

لأَبـــــي بَكـــــرٍ خَليلـــــي حُـــسْـــنُ رَأيٍ فـــي الحِجـــابِ
يـــا أَبـــا بَكـــرٍ سَـــقاكَ الـــ ـــلَهُ مِـــن صَـــوبِ الـــسَحابِ

وفي المجتمعات القديمة ربطوا بين الماء والمطر عن طريق المحاكاة، ووجدوا أن في الماء قوة جاذبة للمطر الذي تقوم عليه حياتهم، فرَشُّوا الماءَ محاكاةً لنزوله ورغبة فيه، ومثلما وجدوا في رَشِّ الماءِ قوة جاذبة للمطر وجدوا

(٢) التشبيهات ، لابن أبي عون(ت٣٢٢هـ) تحقيق/عبد المعيد خان ، صـ ١٦٩، مطبعة جامعة كمبردج.
(٣) معجز أحمد ٣٠٥/١.
(٤) السابق ٤٢١/٢.
(٥) ديوان العطوي ، جمع وتحقيق/ كاتب هذه السطور، صـ ٧٣، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٣٢هـ. ٢٠١١م

في البعد عنه وعدم الاقتراب منه قوة طاردة له [١]،وقريباً من هذه الفكرة غسلهم البيت بماءٍ نَجِسٍ، طلباً للمطر الذي سرعان ما يهطل ليطهر البيت[٢].

☒ المبحث الثاني: سِمَاتُ لَفْظِ المَاءِ: .

لعل تعدد دلالات الماء – اللغوية والمعرفية والدينية– وامتزاج الحقيقة فيها بالوهم، والخيال بالأسطورة، نابعٌ من تعدد جموعه، وتصنُّف مصادره، وتنوع صفاته وتقابلها وتقلُّبها، لقد تركت هذه السمات الباب مشرعاً أمام الشعراء يلج كل منهم من أي باب شاء، وكل باب يفضي إلى صاحبه حتى أصبحت هذه السمات حلقة مفرغة ؛ لأنه – في الحقيقة – هو هو الماء.

- **أولاً: تعدد جموعه:** يشير التعريف اللغوي الذي ساقه ابن منظور إلى تعدد جموع الماء، وتنوعها، فقد جُمِعَ على:(أمواه، ومياه، وأمواه)، وقد جاء على لسان المتنبي[٣]:

وَأَصْبَرَ عَن أَمْوَاهِهِ مِنْ ضَبَابِهِ وَآلَفَ مِنْهَا مُقْلَةً لِلوَدَائِقِ

وقَالَ أَبُو ثُمَامَة بن عَازِب الضَّبِّيّ[٤]:

رَدَدْتُ لِضَبَّةَ أَمْوَاهَهَا وَكَادَتْ بِلادُهُمْ تَسْتَلِبُ

وفِي لَفْظِ (المِيَاهِ) جَاءَ قَولُ المُتنبي[١]:

---

(١).ينظر: الغصن الذهبي دراسة في السحر والدين، جميس فريزر ١/ ٢٥٠، الهيئة المصرية العامة ١٩٧١م.

(٢) ينظر: آثار البلاد وأخبار العباد ،للقزويني:زكريا بن محمد ،صـ٤٩٦، دار صادر ،بيروت ١٩٦٠م.

(٣) معجز أحمد ٤٥٩/٣.

(١) ديوان الحماسة ، لأبي تمام : حبيب بن أوس ، تحقيق/ محمد عبد المنعم خفاجي ، صـ ٢٣٥ ، القاهرة ، سنة ١٣٩٧هـ.

فَكَـــانَ الغَـــرْبُ بَحْـــراً مِـــنْ مِيَـــاهٍ وَكَـــانَ الـــشَّرْقُ بَحْـــراً مِـــنْ جِيَـــادِ

وقال أبو تَمَّامٍ [٢]:

إذا قَـــالَ أَهـــلاً مرْحَبًـــا نَبعـــتْ لَهُـــم مِيَـاهُ النَّـدَى مِـنْ تَحْـتِ أَهْـلٍ وَمَرْحَـبِ

وفِي لَفْظِ (أَمْوَاءِ) ما حكاه ابنُ جني، قال أنشدني أبو علي[٣]:(رجز)

وَبَلْـــــدَةٍ قَالِـــــصَةٍ أَمْوَاؤُهَـــــا يَـــسْتَنُّ فـــي رَأْدِ الـــضُّحَى أَفْيَاؤُهَـــا

وبذلك يتضح أن لفظ الماء وإن كان مفرداً إلا أنه كان متعدداً متنوعاً يستبطن داخله عالماً متحركاً متشابكاً من المعاني والدلالات حسب السياق.

وقد يرد المتعدد بلفظ المفرد، أو المثنى بلفظ الواحد، ويتضح ذلك في قوله ﷻ[٤]﴿:فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ ﴾، فلقد جاء في تفسير القُرْطُبِيِّ،قَالَ الْفَرَّاءُ وَالْأَخْفَشُ: مِنْ ماءٍ دافِقٍ أَيْ مَصْبُوبٍ فِي الرَّحِمِ،..... فَالدَّافِقُ هُوَ الْمُنْدَفِقُ بِشِدَّةِ قُوَّتِهِ، وَأَرَادَ مَاءَيْنِ: مَاءَ الرَّجُلِ وَمَاءَ الْمَرْأَةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَخْلُوقٌ مِنْهُمَا، لَكِنْ جَعَلَهُمَا مَاءً وَاحِدًا لِامْتِزَاجِهِمَا [٥]"،فهو لا يُعتبر عنصراً واحداً، وإنما عنصران، ومن ثم يحمل لنا

---

(٢) معجز أحمد ٣٠٥/١.

(٣) ديوان أبي تمام ، شرح الخطيب التبريزي : أبي زكريا يحيي بن علي (ت٥١٢هـ)، تحقيق/ محمد عبده عزام ١٥٢/١، دار المعارف– مصر ، ط٤، سنة ١٩٥١م.

(٤) شرح شافية ابن الحاجب ، للرضي الإستراباذي، نجم الدين، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد ، وآخرون ، ٤٣٧/٤، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م.

(٥) سورة الطارق ، الآيات (٥-٧).

(١) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ، للقرطبي : أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ، تحقيق/ أحمد البردوني، وآخر ٤/٢٠، دار الكتب المصرية –القاهرة ، ط٢ ، ١٣٨٤هـ.١٩٦٤م.

هذا اللفظ من خلال جموعه تعدد عناصره،وإن بَدَتْ في صورة عنصر واحد.

•ثانياً: تعدد مصادره:لقد تعددت مصادر الماء عند عرب الجاهلية وعرب الإسلام، ذكروه في مديحهم وغزلهم ووصفهم....إلخ، فكان المادة التي تستلهب مشاعرهم، وتستوعب أحاسيسهم، وتستقطب بواكير أفكارهم، ومنه:

ماء المُزْنِ الذي جعله جويرية بن بدر دالاً على عطايا الممدوح وكرمه، فقال(١):

لَعَلَّهُمْ أنْ يُمْطِرُونِي بِنِعْمَةٍ كمَا صَابَ مَاءُ المُزْنِ فِي البَلَدِ المَحْلِ

ويستعمله ابن المعتز للدلالة على الدموع الهواطل، فيقول(٢):

فَوَضَعتُ وَجدي بِالتَنَفُّسِ وَالبُكا وَرَأَيتُ ماءَ المُزنِ كَيفَ يَجُودُ

وينقل الأخطل المعنى للخمر، فيقول(٣):

حَتّى إِذا اِقتَضَّ ماءَ المُزنِ عُذرَتَها راحَ الزُجاجُ وَفي أَلوانِهِ صَهَبُ

ويتأثر أبو الطيب بهذه الصورة الخمرية، فيقول(٤):

هَجَرتُ الخَمرَ كَالذَهَبِ المُصَفّى فَخَمري ماءُ مُزنٍ كَاللُجَينِ

وقال أيضاً(٥):

---

(٢) العقد الفريد ، لابن عبد ربه ، تحقيق/عبد المجيد الترحيني ٤٦/٦ ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ . ١٩٨٣م.

(٣) ديوان ابن المعتز ، شرح وتقديم / ميشيل نعمان ،صـ ١٥٢، الشركة اللبنانية للطباعة والنشر – بيروت ، سنة ١٩٦٩م.(بدون ط).

(٤) الصناعتين ،لأبي هلال العسكري، تحقيق/ علي البجاوي ، ومحمد أبو الفضل ، صـ ٢٨٦، المكتبة العصرية – بيروت ، ١٤١٩هـ.

(١) معجز أحمد ٢٩٥/١.

(٢) السابق ٤٣٣/٤.

وَلَـــمْ يَـــسْقِنِي الـــرَّاحَ مَمزُوجَـــةً بِمَـــاءِ اللَّثَـــى لا بِمَـــاءِ المُـــزَنِ

ومنه **ماء السحاب**، وهو الذي يدل عند حسان بن ثابت على ريق المحبوبة مازجاً في الصورة بين ماء السحاب والمسك لتتظافر الحواس الذوقية والبصرية في نقلها، حيث قال(١):

تَبَلَـتْ فُـؤادَكَ فـي المَنـامِ خَريـدَةٌ تَـشفي الـضَجيعَ بِبـارِدٍ بَـسّامِ
كَالمِـسكِ تَخلِطُـهُ بِمـاءِ سَـحابَة أَو عـاتِقٍ كَـدَمِ الـذَبيحِ مُـدامِ

وقال ابن المعتز يصف ليلةً طيبةَ المجلسِ(٢):

سِـياطُها مَـاءُ الـسَّحَابِ الغُـرِّ كَأَنَّـهُ ذَوبُ لُجَـينٍ يَجـرِي

ومنه **ماء النَّضْحِ**، وقد دلَّ به طَرَفَةُ بن العبد على سُرعة فرسه، فقال(٣):

مَوضـوعُها زَولٌ وَمَرفوعُهـا كَمَـرِّ غَيْـثٍ لَجِـبٍ وَسـطَ رِيـحْ
تَثْغَـبُ بِالفَارِسِـي ثَغَبـاً كَمَـا يَثْغَـبُ القَرْقَـرَ مَـاءُ النَّـضِيحْ

ومنه **ماء البحر** عندما قال عمرو بن كلثوم يفتخر(٤):

مَلَأنـا البَـرَّ حَتّـى ضـاقَ عَنّـا وَمَـاءُ البَحـرُ نَمـلأُهُ سَـفِينَا

وقال أَشْجَعُ السُّلَمِيُّ(١):

---

(٣) ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق/ سيد حنفي ،صـ ١٠٧، طبعة الهيئة المصرية العامة ، سنة ١٩٧٤م.

(٤) ديوان ابن المعتز ،صـ ٢٠٨.

(٥) ديوان طرفة بن العبد ، تحقيق/ دريه الخطيب ، ولطفي الصقال ، صـ ١٧١، مطبوعات اللغة العربية – دمشق ، سنة ١٩٧٥م.

(١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، للأنباري: أبي بكر محمد بن القاسم ، تحقيق/ عبد السلام هارون ،صـ ٤٢٧، دار المعارف ،ط٤، سنة ١٤٠٠هـ . ١٩٨٠م.

وَبَعـــــضُ اللَـــــومِ لا يُنقيـــــ .م. ـــــهِ مـــــاءُ البَحـــــرِ بِـــــالرُّحَضِ

ومنه **ماء الغمام** الذي جعله المتنبي ريقاً لمحبوبته،فقال(٢):

أَريقُـــكِ أَم مـــاءُ الغَمامَـــةِ أَم خَمـــرُ بِفِـــيَّ بَـــرودٌ وَهـــوَ فـــي كَبِـــدي جَمـــرُ

ويجعله البحتري يداً لعطايا الممدوح، فيقول(٣):

أَبـــوهُ البَحـــرُ ســـاحَ لَنـــا نَـــداهُ فَفـــاضَ وَأُمُّـــهُ مـــاءُ الغَمـــامِ

ومنه **ماء الوَرْدِ** الذي شبه المتنبي ممدوحه به، فقال(٤):

فَـــإِن يَـــكُ سَـــيّارُ بـــنُ مُكـــرَمٍ اِنقَـــضى فَإِنَّـــكَ مـــاءُ الـــوَردِ إِن ذَهَـــبَ الـــوَردُ

واستعاره لطيب رائحة محبوبته، فقال أيضاً(٥):

كُـــلُّ خَمـــصانَةٍ أَرَقُّ مِـــنَ الخَمـــ .م. ـــرِ بِقَلـــبٍ أَقـــسى مِـــنَ الجَلمـــودِ
ذاتِ فَـــرعٍ كَأَنَّمـــا ضُـــرِبَ العَنـــ .م. ـــبَرُ فيـــهِ بِمـــاءِ وَردٍ وَعـــودِ

وأُضِيْفَ لفظُ الماءِ إلى الإنسان، فكان **ماءُ العَيْنِ** عند المُرَقِّش الأصْغَرِ (ربيعة بن سفيان) وهو يقول(٦):

أَمِـــنْ رَسْـــمِ دارٍ مـــاءُ عَيْنَيـــكَ يَـــسْفَحُ غَـــدا مـــن مُقـــامٍ أَهْلُـــهُ وتَرَوَّحُـــوا

---

(٢) أشجع السلمي حياته وشعره ، خليل بنيان حسون ، صـ ٢٢٤، دار المسيرة ، ط١ ، ١٤٠١هـ. ١٩٨١م.

(٣) معجز أحمد ١٢٧/١.

(٤) ديوان البحتري ، عنى به/ حسن كامل الصيرفي ،مج ٣/ ١٩٣٤، ط٣ ،دار المعارف– مصر ١٩٦٤م.

(٥) معجز أحمد ٣٦٠/٢.

(٦) السابق ٧٢/١.

(١) شرح المفضليات ، للتبريزي: يحيى بن علي ، تحقيق/ علي البجاوي،٣٨٣/٢، دار نهضة مصر– القاهرة، ١٩٧٧م.

ويَتَعَشَّقُ به قَيْسُ بنُ الملوَّحِ العَامِريّ إلي مجنونته[١]، فيقول:

بَـل مـا قَـرَأتُ كِتابـاً مِنـكِ يَبلُغُنـي إلّا تَرَقـرَقَ مـاءُ العَـينِ أَو دَمَعـا

وكان **ماء الأسنان** عند طَرَفَةِ بنِ العَبْدِ في قوله[٢]:

وَإذا تَـضحَكُ تُبـدي حَبَبـاً كَرُضـابِ المِسكِ بِالمـاءِ الخَـصِر
صـادَفَتهُ حَرجَـفٌ فـي تَلعَـةٍ فَـسَجا وَسـطَ بِـلاطٍ مُـسبَطِر

وكان **ماء الوجه** الذي وصف به ابنُ الرومي ممدوحه بالكرم والشجاعة، فقال[٣]:

فَلَكَـمْ مِـنْ مَـاءِ وَجْـهٍ صَـانَه وَدَمٍ قَـدْ كَـانَ يَجْـرِي حَقَنَـه

واستخدم المتنبي لفظ الماء على عادة العرب[٤]، فاستعاره للوجه أيضاً فقال[٥]:

وَلَقَـد بَكَيـتُ عَلـى الـشَبابِ وَلِمَّتـي مُـسوَدَّةٌ وَلِمـاءِ وَجهِـيَ رَونَـقُ
حَـذَراً عَلَيـهِ قَبـلَ يَـومِ فِراقِـهِ حَتّـى لَكِـدتُ بِمـاءِ جَفنِـيَ أَشـرَقُ[٦]

---

(٢) ديوان مجنون ليلى ، تحقيق/ عبد الستار فراج ،صـ١٥٧، مكتبة ودار مصر للطباعة والنشر(بدون).

(٣) ديوان طرفة بن العبد ، صـ ٧٢.

(٤) ديوان ابن الرومي ، تحقيق/أحمد بسج ،٤٤١/٣، دار الكتب العلمية بيروت ، ط٣ ،٢٠٠٢م.

(١) يقول الثعالبي : " العرب تستعير في كلمها الماء لكل ما يحسن موقعه ومنظره ، ويعظم قدره ومحله" ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، لأبي منصور الثعالبي صـ ٥٦٣ ، دار المعارف – القاهرة.

(٢) معجز أحمد ١٠٦/١.

(٣) ولا يخفى ما في قوله **(ماء جفني أشرق)** من خروج عن الدائرة الحقيقية للماء ؛ لأن فيه خروج من معنى الحياة إلى معنى الموت الواردة في (أَشْرَق) ،

وكان **ماء الجُسُوْمِ** عند المتنبي يتوَّعَدُ من قَتَلَ فرسَه ومُهرَه فيقول(١):

سَتَبكي شَجوَها فَرَسي وَمُهري ... صَفائِحُ دَمعها ماءُ الجُسومِ

وطَرَقَ الشعراءُ بابَ المجاز فأضافوا الماء إلى الأمور المعنوية لا الحسية، فكان **ماء الشوق** عند قَيْسِ العَامِرِيِّ، حيث قال يتغزَّلُ(٢):

زَرَعنَ الهَوى في القَلبِ ثُمَّ سَقَينَهُ ... صُباباتِ ماءِ الشَوقِ بِالأَعيُنِ النُجلِ

وكان **ماء السُّرورِ** عند أبي الوليد بن المشرَّف الجنَّان الكَنانِيِّ، فمن قلائد غرامياته(٣):

يَرْعَى اللهُ أنْسَنَا بَينَ رَوْضٍ ... حَيْثُ مَاءِ السُّرُورِ فِيهِ يَجُولُ

وكان **ماء الشباب** عند ابن المعتز في قوله(٤):

غَزالٌ صَفا ماءُ الشَبابِ بِخَدِّهِ ... فَضاقَت عَلَيهِ سورُهُ وَدَمالِجُه

وقال أبو الطيب أيضاً(٥):

وَأَحسَنُ مِن ماءِ الشَبيبَةِ كُلِّهِ ... حَيا بارِقٍ في فارَةٍ أَنا شائِمُه

الدالة على الهلال ، مما يدل على فقدان لفظ الماء لطبيعته وما عليه من الليونة والرقة ، واستدعائه معاني العنف والقوة ، وهذا بيت القصيد في البحث إن شاء الله عز وجل.

(٤) معجز أحمد ٤٥٦/٢.

(٥) ديوان مجنون ليلى ، صـ ١٨٠.

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لشهاب الدين المقري التلمساني ،تحقيق/ إحسان عباس ،١٢١/٢، دار صادر– بيروت – لبنان ، ط ١، ١٩٩٧م.

(٢) ديوان ابن المعتز ، صـ ١١٢.

(٣) معجز أحمد ٢١/٣.

لقد تكرر ورود لفظ الماء – مفرداً وجمعاً دالاً علي الكثرة والقلة – في الشعر العربي عامة، وفي شعر المتنبي خاصة، حاملاً دلالاته المتعددة، لتعدد مصادره واختلافها، وتكاثر صفاته وتباينها، وتقابل أحواله وتقلبها.

ارتبطت هذه الدلالات بسياقات عديدة، تكشف عن علاقة تربط بين ألوان شعرية كثيرة التردد في قصائد المتنبي خاصة ؛ فشعرُه مُعجمٌ للغةِ القتالِ وصدى لموسيقى الحرب، فانعكس هذا المعجم على دلالة لفظ الماء، وفَجَّرَ فيه معاني القوة بعد أن تظافر المعنى الدلالي على المعنى المعجمي، في هذه الدائرة حضرت ألفاظ السيف، والجياد، والخيل، ....فاستلَّ الماءُ من هذه الألفاظ بعضاً من دلالتها وأسقط عن ذاته بعضاً من دلالته حين لا تتفق مع السياق، فكانت الدلالة الجديدة مزيجاً من هذه الألفاظ المتجاورة.

- **ثالثاً: تعدد الصفات:** تبعاً لتعدد مصادر الماء تعددت صفاته تعدداً قد يصل إلى حد التقابل والتناقض والتضاد، وقد يكون تلازماً ما بين الصفة ونقيضها، من هذه الصفات، صفتا **العذوبة والملوحة** وقد ذكرهما الله (ﷻ)في قوله[1]:﴿هَـٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ..... ﴿١٢﴾ ﴾، وتكررت هاتان الصفتان في قوله ﷻ[2]:﴿ هَـٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَـٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾ ﴾.

ومن صفات الماء أيضاً " **الطهر** " وقد ذكرها الله (ﷻ)في قوله[3]:﴿ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ ﴾، ومن صفاته " **البركة** " قال(ﷻ)[4]:﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ ﴾

---

(1) سورة فاطر ، آية ١٢.

(2) سورة الفرقان ، آية ٥٣.

(3) سورة الفرقان ، آية ٤٨.

(4) سورة ق ، آية ٩.

ومن صفاته " **القتل** "، وهو الماء الذي أهلك قومَ نوحٍ، قال(ﷻ)[1]:﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ ﴾، وإسنادُ فعل الطغيان للماء خروجٌ عن طبيعة الماء، يستدعي انهداماً حضارياً شاملاً أتى علي الإنسان وما حوله، وهو الغاية التي ينتهي إليها الدم في غالب حضوره، واستغل الشاعرُ (الحسنُ بنُ علي الباخرزي) الصورة الوصفية للماء، فجعله مدحاً في غلام مطرب، فقال[2]:

يَـــا مَلِكـــاً قَـــال حَمَلْنَـــاكُمْ لمَّـــا طَغَـــي المَـــاءُ عَلَـــي الجَارِيَـــة
عَبْـــدُكَ هَـــذا قَـــدْ طَغَـــي مَـــاؤه يَـــا رَبِّ فَاحْمِلْـــهُ عَلَـــي جَارِيَـــة

فلقد ورد لفظ الماء في القرآن الكريم حاملاً معاني كثيرة، ومنها أيضاً: " المهين – والثجاج " وغيرهما.

ومثلما تعددت في القرآن الكريم تعددت عند الشعراء، واستوعبت لغة الشعر هذا التعدد فكانت دالة على صور الشعراء، من ذلك صفتا " **الصفاء والكدر** " وقد ذكرهما عمرو بن كلثوم، فقال[3]:

وَإِنّـــا الـــشارِبونَ المـــاءَ صَـــفواً ◌ وَيَـــشرَبُ غَيرُنـــا كَـــدِراً وَطينـــا

وقد بدأ البيت بأداة توكيد مع الابتداء، ثم تلبس الفعل بالفاعل، ليظهر على هيئة اسم الفاعل (الشاربون) ؛ ليحمل لنا زيادة في تأكيد صفة التعالي، وما فيها من عزّة ومَنْعَةٍ والتي دلل عليها بقوله (الماء صفواً)، ليقابلها في الشطر الثاني الانكسار والهوان من خلال تهميش الفاعل المُبهم (غيرنا) وتغييب الماء ؛ ليصبح المشروب كَدراً وطِيناً، وهكذا يصبح الماء الصفو دالاً على العزة والمنعة،

---

(1) سورة الحاقة ، آية ١٢.

(2) الوافي بالوفيات ، للصفدي ، تحقيق/ أحمد الأرنأووط ، وتركي مصطفى ، ٩٤/١٢، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٠هـ . ٢٠٠٠م.

(3) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، الأنباري ، صـ ٤١٩.

والماء الكدِر دالاً على الذل والهوان، وقريبٌ منه قول عنترة[1]:

لا تَسقِني ماءَ الحَياةِ بِذِلَّةٍ بَل فَاسقِني بِالعِزِّ كَأسَ الحَنظَلِ

وأخذه المتنبي ووضعه في سياقٍ جديدٍ، فاستعاره لريق المحبوبة وجعله دالاً على الإحْيَاءِ فقال[2]:

فَذُقتُ ماءَ حَياةٍ مِن مُقَبَّلِها لَو صابَ تُرباً لَأَحيا سالِفَ الأُمَمِ

ومن صفات الماء عند الشعراء " **الشّفَاءُ** " وفيه اغتسل سيدنا أيوب(عليه السلام)، وعنه قال عَبِيْدُ بنُ الأبْرَصِ[3]:

فَذَلِكَ الماءُ لَو أَنّي شَرِبتُ بِهِ إذاً شَفى كَبِداً شَكّاءَ مَكلومَه

ومن صفات الماء أيضاً " **الحميم** " وهو من الأضداد للدلالة علي الماء البارد أو الحار، وفي الدَّلالة على المعنى الأول قال النابغة الذبياني[4]:

وَساغَ لي الشَرابُ وَكُنتُ قَبلاً أَكادُ أَغُصُّ بِالماءِ الحَميمِ

وفي الدَّلالة على المعنى الثاني قيل[5]:

---

(1) ديوان عنترة ، تح/ عباس إبراهيم ، صـ ٩٩ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط ٢ ، سنة ١٩٩٨م.

(2) معجز أحمد ١/١٣٣.

(3) ديوان عبيد بن الأبرص ، تح/ حسين نصار ،صـ ١٢٩ ، مطبعة البابي الحلبي – القاهرة ، ١٩٥٧م.

(4) ديوان النابغة الذبياني ، تح/ عباس عبد الستار ،صـ ٩٦ ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط٣، ١٤١٦هـ . ١٩٩٦م.

(5) كتاب الأضداد ، للأنباري : محمد بن القاسم ، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ، صـ ١٣٨ ، المكتبة العصرية – بيروت ، سنة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.لم أقف على قائله فيما عدت إليه من مصادر.

فَخُـــشَّتْ بهـــا النَّـــارُ نَـــارُ الحَمِـــيْمِ وصُـــبَّ الحَمِـــيْمُ عَلَـــي هَامِهَـــا

وفي اللسان " جَاءَ قَولُ ابنِ الأعرابِ وَاصفاً حَالَ المُرضِعَاتِ وجاعلاً من شرب الماء الحار دلالة على الفقر والعوز.

وبِـــتْنَ عَلَـــى الأَعْـــضادِ مُرْتَفِقاتِهـــا وحـــارَدْنَ إِلَّا مَـــا شَـــرِبْنَ الحَمائمـــا

وجاء في معنى البيت قوله:انْقَطَعَتْ أَلبانُ المُرضِعَاتِ إذ لَيْسَ لَهُنَّ مَا يَأكُلنَ ولا يَشْرَبْنَ إلا أَن يَشْرَبْنَ الْحَمِيمَ وَهُوَ الْمَاءُ يُسَخِّنَّه فَيَشْرَبْنَهُ، وإنما يُسَخِّنَّه لأَنهنّ إِذا شَرِبْنَهُ بَارِدًا عَلَى غَيْرِ مَأْكُولٍ عَقَر أَجْوَافَهُنَّ، فَلَيْسَ لَهُنَّ غِذَاءٌ إلا المَاءُ الحَارُ[1] "

- **رابعاً: التَّقَلُّبُ والتَّلَوُّنُ:** امتاز الماء بخاصية التقلب والمخاتلة، فلا يثبت على حال كما لا يثبت علي سمة، فهو متقلب في جميع الأجرام السيالة، فيكون أبيض إذا قلَّ عمقُه، وأخضر إذا كان وسطاً، وأسود إذا بعد غَورُه، وصوَّرَه أبو العلاء المعري في لُزُومِيَّاتِه، فقال [2]:

وَلا لَـــونَ لِلمـــاءِ فيمـــا يُقـــالُ وَلَكِـــــن تَلَوُّنُـــــهُ بِـــــالأَواني

في هذه الدراسة سوف نتجاوز لفظ الماء الوارد في مثل هذه الأبيات السابقة، ونقف عند لفظ الماء وقد أُخْرِجَ مِن ذاتِه دلالاتُ الليونةِ والرقةِ وتَلَبَّسَ بدلالاتِ القوةِ والمَنْعَةِ، مُستَعِيناً بالسِّيَاقِ فِي هَذا التَّلَبُّسِ.

---

(١) ينظر: اللسان ، مادة (حمم).

(٢) ديوان لزوم ما لا يلزم ، لأبي العلاء أحمد بن سليمان التنوخي ، رواية الإمام التبريزي ، مراجعة / الإمام الجواليقي ، تقديم وشرح وفهرسة / وحيد كبابه ، وحسن صمد ، ٥٣٦/٢ ، دار الكتاب العربي ، ط١، سنة ١٣١٦ هـ.

* المبحث الثالث: علاقةُ الماءِ بمَعَانِي القوَّةِ فِي شِعرِ أَبِي الطَّيِّبِ:

لقد سبق الإشارة إلى أن القوة والشدة والعنف من دلالات الدم، وإحدى خصاله، وسِمة من سماته التي تميزه عن غيره، ولكن كيف ارتبطت هذه الصفات بالماء، واستطاع أن يشارك الدَّمَ هذه الدلالات، على الرغم أن هناك ألوان شعرية تَعُودُ بدلالتها إلى هذه الصفات كالسيف، والأسنة، والرمح، والخيل، والقتل.... إلخ ؟، وذلك لأن للماء والدم تميزاً عن بقيتها، وبينهما علاقة لا تتوفر بين هذه الأكوان، فقد اجتمع فيهما معاً دلالة السيولة، والصلة الوثيقة بالحياة والموت، فكان الماء دالاً على الحياة وإن اسْتُبْطِنَتْ دلالةُ الموت داخله، وكان الدم دالاً على الموت وإن اسْتُبْطِنَتْ دلالةُ الحياة بوجوده، تداخلت كل منهما مع الأخرى فسقطت بينهما حواجزُ الاختلاف.

وأسقط المتنبي على لفظ الماء دلالات العزة والمنعة والقوة، ولم يتم إسقاطه لهذه الدلالات عن طريق المشابهة فحسب، وإنما عن طريق تجاور الألفاظ وتلاحمها أيضاً، وكان للسياق دور فعَّالٌ في هذا التلاؤم، وهذا الارتباط بين الماء ومعاني القوة ودلالاتها جعلت له حضوراً مع ألفاظ القتال والفروسية والحرب والثأر، لا سيما وأن الماءَ شاهدٌ لهذا القتال وهذه الفروسية.

هذه العلاقة المكانية التي تربط الماء بالقوة والشدة جعلته يتجرد من معاني السهولة والليونة والرقة – وهي دلالاته الأصيلة – هذا التجرد أورده المتنبي ضمن قصيدة يرثي بها والدةَ سَيْفِ الدَّولَةِ الحَمَدَانِي، حَرَصَ فيها على تَفَرُّدِ مرثيتُه ليعطي لنفسه الحق في رثاء المرأة التي لم يعتد العرب على رثائها [1].

وَلَيـــــسَت كَالإنـــــاثِ وَلا اللَـــــواتي تُعَـــدُّ لَهـــا القُبـــورُ مِـــنَ الحِجـــالِ

(١) معجـز أحمـد ٤٧/٣ ، وشـرح ديـوان المتنبـي ، عبـد الـرحمن البرقـوقي ، ١٤٨/٣ ، دار الكتاب العربي – بيروت ، سنة ١٩٣٨.

هذا التَّفَرُّدُ نالته لأنها والدةُ سيف الدولة:

رِواقُ العِـــــزِّ حَولَـــــكِ مُـــــسبَطِرٌّ وَملـــكُ عَلِـــيٍّ اِبنِـــكِ فـــي كَمـــالِ[1]

ثم يقول [2]:

بِعَيـــشِكِ هَـــل سَـــلَوتِ فَـــإِنَّ قَلبـــي وَإِن جانَبـــتُ أَرضَـــكِ غَيـــرُ ســـالي
نَزَلـــتِ عَلـــى الكَراهَـــةِ فـــي مَكـــانٍ بَعُـــدتِ عَـــنِ النُعـــامى وَالـــشَمالِ
تُحَجَّـــبُ عَنـــكِ رائِحَـــةُ الخُزامـــى وَتُمنَـــعُ مِنـــكِ أَنـــداءُ الطِـــلالِ
بِـــدارٍ كُـــلُّ ســـاكِنِها غَريـــبٌ طَويـــلُ الهَجـــرِ مُنبَـــتُّ الحِبـــالِ
حَـــصانٌ مِثـــلُ مـــاءِ المُـــزنِ فيـــهِ كَتـــومُ الـــسِرِّ صـــادِقَةُ المَقـــالِ
يُعَلِّلُهـــا نِطاسِـــيُّ الـــشَكايا وَواحِـــدُها نِطاسِـــيُّ المَعـــالي
إِذا وَصَـــفوا لَـــهُ داءً بِثَغـــرٍ سَـــقاهُ أَسِـــنَّةَ الأَســـلِ الطِـــوالِ
وَلَيـــسَت كَالإِنـــاثِ وَلا اللَـــواتي تُعَـــدُّ لَهـــا القُبـــورُ مِـــنَ الحِجـــالِ

ربط المتنبي في هذه المرثية بين الماء ووالدة سيف الدولة عن طريق علم البيان الماثل في التشبيه، وذلك في قوله (حصان مثل ماء المزن) ونَصَّ الشارحُ على أن الحَصَانَ (العفيفة... والمزن: السحاب، ثم قال: في هذا المكان امرأة عفيفة مثل المزن[3])، واكتفى بذلك الشرح مع أن لفظ " حصان " الذي سبق لفظ

(١) جاء في شرح البرقوقي ٣/٢٤٥ ، قوله : أنكر الصاحب بن عباد لفظة " مسبطر " ، وقال :إن ذِكْرَها في مرثية النساء من الخذلان المبين " ، والصاحبُ مولعٌ بنقد المتنبي وذمه بالحق والباطل ، وإلا فالكلمة لا غبار عليها. وقال العروضي : سمعت أبا بكر الشعراني خادم المتنبي يقول : قدم المتنبي وقرأنا عليه شعره ، فأنكر هذه اللفظة ، وقال : مستظل ، قال العروضي : وإنما غيرها الصاحبُ وأنكرها عليه ، يقول : مُتْ وأنت في هذا الحال من العز المتطاول ، والملك الكامل من ملك ابنك.

(٢) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٣/١٤٧-١٤٨ ، معجز أحمد ٣/٤٧-٤٩.

(٣) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٣/١٤٧.

الماء يفتح معان عدة، ولفظ " المزن " الذي يليه يفتح دلالات عدة.

ففي قوله: " **حصان مثل ماء المزن** " يربط الشاعر بين طرفين هما (حصان) من طرف (وماء المزن) من طرف آخر، جاء الأول منهما نكرة دلت على العفة والطهر – وهذا المعنى الذي ذهب إليه الشارح – كما دلت أيضاً على " المنعة "

حيث جاء في " لسان العرب ": والحِصْنُ: كلُّ مَوْضِعٍ حَصِين لَا يُوصَل إِلى مَا فِي جَوْفِه، وَالْجَمْعُ حُصونٌ....والعَرَبُ تُسَمِّي السّلاحَ كُلَّه حِصناً(١)، لذا كانت مرثيته طاهرة عفيفة وأيضاً عزيزة الجانب منيعة، يؤكد هذا المعنى الطرف الثاني في التشبيه (ماء المزن)، المكوَّنُ هو الآخر من طرفين مضاف ومضاف إليه، وَرَدَ الطرفُ الأول (ماء) نكرة مما يفتح أمامه الباب واسعاً لاستقطاب دلالاته من الطرف الثاني (المزن) الذي ارتبط مع الماء بوشائج عميقة، فأصبح الماء (ماء مزن) ليس مجرد ماء، بل هو ماء منيع متحصن داخل سحابة لا يُسْتَبَاحُ فَيكُونُ شراً يُستَعَاذُ مِنْهُ – عَلَى عَادَةِ العَرَبِ– كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ (٢):–

وَمِـــن شَـــرِّ المِيـــاهِ إِذا اِســـتُميحَت أَواجِنُهـــا عَلـــى طـــولِ المُقـــامِ

ولا يُحرم بسلطان القوة والسيف كَقَوْلِ المُتَنَبِّي(١):

---

(١) اللسان : حصن

(٢) ديوان أبي تمام ٢٧٨/٣ ، ربما تأثر أبو تمام في هذا التركيب (شر المياه) أو تأثر الأعرابي منه في قوله :

شَرُّ المِيَاه الحارِثُ بنُ ثَعْلَبَة مَـاءٌ يُـسَمَّى بِـالحَزِيْزِ العِلْيَبَـه

الأمكنة والمياه والجبال : للزمخشري ، تحقيق/ إبراهيم السامرائي ، صـ١٥٦ ، مطبعة السعدون ، بغداد ، (بدون).

(١) معجز أحمد ٣٣٥/٣ ، شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٢١٩/٣.

يُحَرِّمُـــهُ لَمـــعُ الأَسِـــنَّةِ فَوقَـــهُ فَلَـــيسَ لِظَمـــآنٍ إِلَيـــهِ وُصـــولُ

لذا كانت مرثية (حصان مثل ماء المزن) منيعة الجانب نقية طاهرة، ولكن هذه المنعة والعزة والتفرد – التي دلت عليها كلمة الماء وما جاورها من السياق – لم تكن حائلاً دون الموت لذلك بدأ قصيدته بذكر المشرفية والعوالي وما يحمله من إيماء للشرف والعلو والمجد والرفعة ؛ وما تتركه هذه الألفاظ من دلالات العزة والمنعة التي يريد الشاعر بثها في قصيدته حين قال[1]:

نُعِـــدُّ المَـــشرَفِيَّةَ وَالعَـــوالي وَتَقتُلُنـــا المَنـــونُ بِـــلا قِتـــالِ

وبهذا المطلع وضعنا الشاعر أمام معارضة حادة بين الإنسان في أرفع مكان يصل إليه وأقوى منعة يتحصَّنُ بها، وبين سيطرة الموت وغلبته (وتقتلنا المنون بلا قتال)، هذه السطوة والقوة هي التي قادت المتنبي للاستغراق في الصورة، فجعل تلازماً بين الماء والممدوح من خلال مفارقة بين صورة الماء في قوله: (حصان مثل ماء المزن) وما تحمله كل من حصان وماء المزن من دلالات العزة والمنعة وبين قوله[2] :

وَمـــا تَرَكـــوكَ مَعـــصِيَةً وَلَكِـــن يُعـــافُ الـــوِردُ وَالمَـــوتُ الـــشَرابُ
طَلَبـــتَهُم عَلـــى الأَمـــواهِ حَتّـــى تَخَـــوَّفَ أَن تُفَتِّـــشَهُ الـــسَحابُ

فصورة الماء في هذين البيتين تثير معاني الخوف والفزع، يظهر ذلك من خلال قوله:(الموت الشراب)، ومن خلال قوله السابق (تقتلنا المنون)؛ " لأنَّ الشَّرابَ إذا كانَ المَوْتَ كُرِه الوُرُوْدُ عليه[3]"، ويتضح ذلك أيضاً من خلال تجاوز الشاعر دلالة لفظ مياه على الكثرة التي يتضمنها معنى البيت الثاني إلى دلالة (أمْوَاه) على القلة، وكأنة يحمل تقليلاً لشأن هذه المياه التي يجوبها ممدوحه، هذه

(1) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ١٤٧/٣.
(2) معجز أحمد ٣/ ٤٠٦ ، شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٢٠٥/١.
(3) معجز أحمد ٤٠٦/٣.

الاستهانة امتدت إلى كلمة سحاب وما فيها من معاني السَّحْبِ والجَرِّ وما يحمله من انكسار أمام نفوذ سيف الدولة وسطوته.

وظلت صورة الماء ودلالته ماثلة في النص ولم تفقد ذاتها داخل الدلالات المجاورة لها من حصان ومزن وسحاب، مع ملاحظة أن هذه الدلالات سبقت بذكر أدوات القتال المشرفية والعوالي إلا أنها أدوات لم تُرِقْ دماً ؛ لذلك ظل الماء محتفظاً بذاته ودلالته، حتى إذا حضرت إلى الماء تلك العوالمُ مصحوبة بالدم، بدأ الماء يفقد ذاته، فتتحول دلالته ليكون سبباً للموت والفناء بدلاً من الحياة والبقاء، تركت لنا هذه الدلالة قلقاً وتوتراً، بدا واضحاً من مطلع النص القادم، من خلال تكرار لفظ الليل وطوله، فقال[1]:

لَيَـــالِيَّ بَعـــدَ الظـــاعِنينَ شُـــكولُ طِـــوالٌ وَلَيـــلُ العاشِـــقينَ طَويـــلُ

لذلك جاء ذكر الماء حاملاً بعضاً من هذا القلق الذي ظهر من خلف الشَّرَقِ، فقال[2]:

وَمـــا شَـــرَقي بِالمـــاءِ إِلّا تَـــذَكُّراً لِمـــاءٍ بِـــهِ أَهـــلُ الحَبيـــبِ نُـــزولُ
يُحَرِّمُـــهُ لَمـــعُ الأَسِـــنَّةِ فَوقَـــهُ فَلَـــيسَ لِظَمـــآنٍ إِلَيـــهِ وُصـــولُ

يحمل تكرار لفظ الماء في البيتين اهتماماً خاصاً، فقد ورد في البيت الأول اسماً ظاهراً مرتين، مشاراً إليه بالضمير في الثالثة (به)، وتكَرَّرَ ذكرُه في البيت الثاني ثلاث مرات، ولكنه ظل فيها مستتراً مُتخفِّياً وراء الضمير (يحرمه – فوقه – إليه)، ففي صدر البيت الأول جاءت كلمة الماء معرفة بـ" ال" مرتبطة بالشَّرَقِ والغَصَصِ وما فيهما من دلالات الموت[3](وما شرقي

(1) معجز أحمد ٣٣٢/٣ ، شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٢١٧/٣.
(2) معجز أحمد ٣٣٥/٣ ، شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٢١٩/٣.
(3) اللسان ، (مادة: شَرَقَ) ولذلك قالت الخنساء تبكي أخيها صخر :

بالماء)، على حين ذكر في عجز البيت نكرة وارتبط نعتها بالحبيب (ماء به أهل الحبيب)، ويحمل النعت تميزاً لها فيظهر لنا التماثل والاختلاف بينهما في آن واحد، فينتزع من بين المتآلفات أشياء متباينة، فالماء الذي يشرق به غير الماء الذي ينزل به أهل الحبيب ومن هنا تتآلف المياه وتختلف – وكأنه يجمع بين أضداد –، فيضعنا الشاعر بذلك أمام قوتين تتجاذبانه، هما: قوة الحياة وقوة الموت (ماء به أهل الحبيب – ويحرمه لمع الأسنة فوقه)؛ لتستمر دلالة القلق والتوتر الذي طُرح من بداية النص لاحتجاب وسيلة الحياة (الحبيب)، واحتجاب لفظ الماء معها مكتفياً بعودة الضمير في (يحرمه – فوقه – إليه) مع نَفْي الوصول إليه (فليس لظمأن إليه سبيل)

وإذا كان الموت قد حدث في الزمن الماضي، ويشهد على ذلك زمن الفعل (شرقي)، إلا أن تحريم الماء ظل قائماً مستمراً (يحرمه)، وظل الزمن المضارع شاهداً على استمراره، وظل:(مَاءٌ يُعْجِزُ الطَّيْرَ وِرْدُهُ) [1].

وفي هذه الأبيات هَيَّأَ هذا الحضور للماء والدم أو العلاقة الجدلية بينهما بحضور السيف وتأثيره إلى خلق تلازم هذه الأطراف وظهور دلالات القوة من خلال ذكر الماء والتلازم بينه وبين الدم، هذا التلازم ظهر في الأبيات التالية بصُحبةِ الطَّرَفِ الثالِثِ لِمُثَلَّثِ القوَّةِ وهي النار ودلالاتُها[2]:

كَفِرِنـــدي فِرِنـــدُ سَـــيفي الجُـــرازِ ... لَـــذَّةُ العَـــينِ عُـــدَّةٌ لِلبَـــرازِ
تَحـسَبُ المـاءَ خَـطَّ فـي لَهَـبِ النـا ... رِ أَدَقَّ الخُطـــوطِ فـــي الأَحـــرازِ
كُلَّمـــا رُمـــتَ لَونَـــهُ مَنَـــعَ النـــا ... ظِـــرَ مَـــوجٌ كَأَنَّـــهُ مِنـــكَ هـــازي
وَدَقِيـــقٌ قَـــذى الهَبـــاءِ أَنيـــقٌ ... مُتَـــوالٍ فـــي مُـــستَوٍ هَزهـــازِ
وَرَدَ المـــاءَ فَالجَوانِـــبُ قَـــدراً ... شَـــرِبَت وَالَّتـــي تَليهـــا جَـــوازي

وَلَكِنّـي أَبيـتُ لِـذِكرِ صَـخرٍ ... أُغَصُّ بِسَلسَلِ الماءِ الغَضيضِ

ديوان الخنساء ، صـ ٧١ ، المكتبة الثقافية ، بيروت (بدون).

(1) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ١٢٨/٢.

(2) معجز أحمد ٣٦٥/٢ ، شرح ديوان البرقوقي ٢٨١/٢ – ٢٨٢.

حَمَلَتـــهُ حَمائِـــلُ الـــدَهرِ حَتّـــى هِـــيَ مُحتاجَـــةٌ إِلـــى خَـــرّازِ
وَهـــوَ لا تَلحَـــقُ الـــدِماءُ غِرارَيـــ .م. ـــهِ وَلا عِـــرضَ مُنتَـــضيهِ المَخـــازي
يـــا مُزيـــلَ الظَـــلامِ عَنّـــي وَرَوِّضـــي يَـــومَ شُـــربي وَمَعقِلـــي فـــي البَـــرازِ

تكررت في النص الأول ألفاظ السيف والماء والدم والنار ومتعلقات كل لفظ منهم، وقد ذُكر السيف اسماً ظاهراً ثم توارى خلف الضمير الظاهر والمستتر، كما ورد ذُكر الفرند مرتين مضافاً إلى ياء المتكلم في الأولى وإلى السيف المضاف بدوره إلى ياء المتكلم في الثانية ؛ مما يحمل تأكيداً على الذات الشاعرة والمتماهية بدورها في السيف، وقد بدأ به النص – على الرغم من كونه مشبهاً به – تاركاً للذهن رسم صورة للذات الشاعرة بعد أن جمعت ملامحها وصفاتها من طرفي الصورة (المشبه والمشبه به)، مما يخلق توحداً بينهما فيتماهى الشاعر في فرند السيف ويتماهى فرند السيف في الشاعر حتى يصبحا صورة واحدة روحاً وفعلاً وتأثيراً.

كما نلمس ذلك – أيضاً – من خلال فعل (الوِرْدِ) والشرب المرتبط بالماء فالسيف يَرِدُ الماءَ، والشاعرُ يشربُ الماءَ، والنتيجة واحدة تظهر من خلال حظر وغياب لفظ الدم في الأبيات المُتصدِّرة للمقطعة، ثم يتوالى من خلال النص تواجد السيف وحضوره مرتبطاً بلفظ الماء الذي يرد مرتين في النص تابعاً في الأولى حيث كان وصفاً (الماء خط في لهب النار) وقد جَمَعَ في هذه الجملة الوصفية بين الماء والنار من باب جمع الأضداد(١)، معضداً الطرف الأول (الماء) بذكر الموج على حين عضد الطرف الثاني (النار) بذكر اللهب، ليتفق الطرفان على إبراز الصورة البصرية، أما في الثانية فقد ذُكر الماءُ مكاناً لورودِ السيف (وَرَدَ المَاءَ فالجوانب قدراً) فيرتبط الماء بالقتل والدم؛ لأن هذا الماء كان

(١) **أو إقامة الشيء مقام ضده وتنزيلهم له منزلته على جهة من الاعتبار، قال القرطاجني : " وكان أبو الطيب المتنبي يستعمل هذه الأنحاء في المعاني ويقصدها في مواضع كثيرة من شعره** "منهاج البلغاء ومراج الأدباء ، حازم القرطاجي ، تحقيق / الحبيب بن الخوجة ، صـ٣٦٧، ٣٦٨ ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، سنة ١٩٦٦م.

سبباً لمضائه وحدته(٢). وإذا ما ورد السيف الماء فإن الشاعر يشرب، وفعل الشرب يُوَجِّه الذِّهْنَ إلى الماء،إلا أن هذا التوجه سرعان ما ينحسر ليطُلَّ لفظ الدم الذي نص عليه الشارح(٣)، (يا مزيل الظلام عني وروضي يوم شربي).

وعندما تصبح العلاقة بين الوِرْدِ والماء والدم علاقة تلازم وتبادل (٤)، حيث

---

(٢) أورد المتنبي هذه الخصوصية للماء في موضع آخر ، فقال يمدح :

كَـرَمٌ خَـشَّنَ الجَوانِـبَ مِـنهُم فَهوَ كَالماءِ فِي الشِّفارِ الرِّقاقِ

معجـز أحمـد ٤٩٠/٢ ، يقـول الـشارح : إن ممدوحـه " كالـسيف إذا سُـقِيَ صَـلبتْ شَـفرتُه وألبَـسَها خُـشونةً مـع مـا فيـه مـن والوضـاءة والـصفاء " الـسابق الـصفحة نفسها.

(٣) يريـد : كمـا أن شـاربَ الـرَّاحِ يـشربها علـى الرِّيَـاضِ والبـساتين ، فَرَوْضِـي يَـوْمَ أَشْـرَبُ دِمَاءَ الأعْدَاءِ. ينظر : شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٢٨٢/٢.

(٤)هذا التـاريخ الـدموي للـوِرْدِ والمَـاءِ والـسيفِ ، هـو تـاريخ العـرب ، الـذي أشـاد بـه عمـرو بن كلثوم مفتخراً فقال في : شرح القصائد السبع الطوال صـ ٤٢٠ :

أَبـا هِنـدٍ فَـلا تَعجَـل عَلَينـا وَأَنظِرنـــا نُخَبِّـــرْكَ اليَقينـــا

بِأَنّـا نـورِدُ الرايـاتِ بيـضاً وَنُـــصدِرُهُنَّ حُمـــراً قَـــد رَوينـــا

وأشاد به عنترة فقال :

وَلَكَـم وَرَدتُ المَـوتَ أَعظَـمَ مَـورِدٍ وَصَـدَرتُ عَنـهُ فَكـانَ أَعظَـمَ مَـصدَرِ

ديـوان عنتـرة العبـسي ، شـرح الخطيـب التبريـزي ، تحقيـق/ مجيـد طـراد ، صـ ٦١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٢هـ . ١٩٩٢م.

وأشادت به الخنساء في رثاء صخر في ديوانها صـ ٤٣ ، فقالت :

يـا صَـخرُ وَرّادُ مـاءٍ قَـد تَـاذَرَهُ أَهــلُ المَــوارِدِ مــا فــي وِردِهِ عــارُ=

=وأشـاد بـه الـشاعر " حَـيْص بَـيْص " وخالطـه بالـدم وجعـل العلاقـة بينهمـا تبادليـة حيـث ورد لفظ الماء مورد لفظ الدم ، فقال :

يحضر لفظ الورد مع الماء، ولفظ السيف مع الدم، فتسقط من الماء معاني الإيجاب وتتعَزَّزُ معاني السلب وما تحمله من دماء.

فورود السيف (وَرَدَ المَاءَ) يتبعه انزياح يلحق بلفظ الماء، لتظهر لنا ألفاظ الدماء وحمرتها (لا تلحق الدماء غراريه)، وإذ ما لحق هذا الانزياح فإن العلاقة بين الماء والدماء(١)،تصبح علاقة تبادلية، فيَتَمَاهَى كلٌّ منهما في الآخر، كما تَمَاهَى سابقاً السيف والشاعر.

هذا التماهي بين الماء والدم جعل لفظ (الورد) الملتصق بالماء، يخرج من بوابة الحياة إلى بوابة الموت، فالسيف يرد الماء فيتركها دماً، والخيل في الأبيات التالية ترد الغدران وتترك أثر ورودها دماً، وهذا ما جاء في قوله(٢):

تَعَـــوَّدَ أَن لا تَقـــضَمَ الحَـــبَّ خَيلُـــهُ إذا الهـــامُ لَـــم تَرفَـــع جُنـــوبَ العَلائِـــقِ
وَلا تَـــــرِدَ الغُـــــدرانَ إِلّا وَماؤُهـــــا مِـــنَ الـــدَمِ كَالرَيحـــانِ تَحـــتَ الـــشَقائِقِ

يثير المتنبي قبل الوصول بالماء لدرجة الامتزاج بالدم معاني القوة من خلال القضم والهام، وتساعد الأفعال المضارعة على استمرار هذه الإثارة (تَعوَّدَ – ترفَعُ – تَرِدُ)، مع ما تتضمنه كلمة (تَعوَّدَ) من معنى التكرار، إلا أن دلالات كلمتي الغدران والماء تثيران ارتياحاً نفسياً، يعزز هذا الارتياح ويقويه حضور لفظي الريحان والشقائق، حيث يثير حضورهما حاستي البصر والشم معاً،

مِـنْ مُـوردي مَـاءِ النُّحُـورِ جِيـادُهمْ والقـــاعُ يخْفـــي بالعجاجـــةِ وِرْدُهُ

ديـوان حَـيْص بَـيْص :الأميـر شـهاب الـدين أبـي الفـوارس: سـعد بـن محمـد التميمـي البغـدادي (ت٥٧٤هـ)، حققـه وضـبط كلماتـه/ مكـي الـسيد جاسـم ، وشـاكر هـادي شـاكر ، ٣١٧/١، منـشورات وزارة الإعـلام – الجمهوريـة العراقيـة. طبعـة سـنة ١٩٧٤م

(١) ولا يغيـب الـسجع النـاقص بـين (مـاء – دمـاء) فهـذه خـصية أخـرى تجمـع بـين الماء والدم وتميزهما عن غيرهما.

(٢) معجز أحمد ٤٦٢/٣ ، شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٧١/٣.

فتُستبعد معاني السلب التي قد تتسرب من الألفاظ الدالة على القوة من جانب، ومن لفظ الغدير وما يشتمل عليه من معاني الغَدْرِ والمُخَاتلة التي يستبطنها المعنى اللغوي من جانب آخر(١)، إلا أنه سرعان ما يظهر هذا الجانب السلبي، ويلتحم مع معاني القوة السابقة، ليظهر الغدر بامتزاج الماء بالدم، فتصطدم الحواس بحمرة الدم المُنَفِّزَةِ بدلاً من حمرة الشقائق المحببة(٢)، لينتقل الإحساس بالصورة للنقيض من الارتياح والانبساط إلى القلق والتوتر، حيث تثار مشاعر الاشمئزاز والألم، فيتحول الماء من بعد الامتزاج بعنصر الحياة إلى الاختلاط بعنصر الموت والفناء(٣).

وهكذا كان لحضور الماء وارتباطه بدلالات القوة في الشعر العربي ولا سيما شعر أبي الطيب قوَّةً ومَزِيَّةً، جعلت للسياق مضامين جديدة، ومن الصور ألواناً وكَيْنُونَةً مُستجدَّةً.

❖ المبحث الرابع: صُوْرَةُ المَاءِ وَالدَّمِ فِي شِعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي:-

---

(١) اللسان ،مادة : غدر.

(٢) ولقد أورد المتنبي هذا الامتزاج في موطن آخر ، فقال :

فَأَتَتكَ دامِيَةَ الأَظَلِّ كَأَنَّما حُذِيَت قَوائِمُها العَقيقَ الأَحمَرا

معجز أحمد ٤٨٨/٤ فلقد جعل الدم المسيل من قوائمها عقيقاً : أي ماء ، وليتبين أن هذا العقيق أصبح دماً أصيلاً ؛ رشَّحَه وعزَّزَه بقوله (الأحمر) ، ومن ثم لا تدري هل شبه الدم الأحمر بالعقيق ؟ فيكون وجه الشبه : السيلان وسرعة الاندفاع ، أو شبه الدم بالعقيق الأحمر ، فيكون وجه الشبه : القتامة وشدة الاحمرار ، فالصورتان لا يغيبان عن معنى النص.

(٣) صار على هذا النهج في الربط بين الماء والدم ، أحد المتأخرين ، فقال :

وَيَلُوحُ في وَرَقِ النَّجِيْعِ فِرِنْدُهُ كَالمَاءِ تَحْتَ شَقَائِقِ النُّعْمَانِ

معجز أحمد ٤٦٢/٣

إن تداخل الماء مع تلك الألوان الشعرية التي ارتبطت في الثقافة العربية بالماء تشبيهاً به، أو وصولاً إليه، أو ذوداً عنه، أو تحديداً لنوعه أو مصدره، تداعت إلى النص ألفاظ القوة – كما سبق – لتتآزر مع لفظ الماء، ساقت هذه القوة الماثلة في الدم ودلالاته على سبيل الحقيقة، والماثلة في الماء ودلالاته على سبيل المجاز صوراً قد تبدو متناقضة، ولكنها متناقضة ظاهرياً فقط، لأن هناك مستوى أعمق يتعلق بمنهجية الأدب، ووضعه في الحكم على الأشياء.

إن هذه العلاقة الوصفية بين الماء والدم تحمل صوراً ثلاثة:

الصورة الأولي: **العَلاقَةُ التَّبَادُلِيَّةُ بَينَ لَفظِ المَاءِ والدَّمِ**، وهي نوعان:

النَّوْعُ الأوَّلُ: وَضْعُ لَفْظِ المَاءِ مَوْضِعُ لَفْظِ الدَّمِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: وَضْعُ لَفْظِ الدَّمِ مَوْضِعُ لَفْظِ المَاءِ.

الصورة الثانية: **العَلاقَةُ الدَّلالِيَّةُ بَينَ المَاءِ والدَّمِ**، وهي نوعان:

النَّوْعُ الأوَّلُ: دَلالاتُ الدَّمِ(١) **مَعَ لَفظِ المَاءِ.**

النَّوْعُ الثَّانِي: دَلالاتُ المَاءِ(٢) **مَعَ لَفظِ الدَّمِ.**

الصورة الثالثة: **غِيَابُ لَفْظِهِمَا وَحُضُوْرُ دَلالَتِهِما** (أي حُضُوْرُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِمَا دُوْنَ مُثُولِهِمَا)

وإليك التفصيل والشرح والاستشهاد ... والله المستعان.

---

(١) تتمثل هذه الدلالات في أدوات القتال كالرمح ، السيف ، القتال ، وفي الحُمرة، المرض ، والموت ، والثأر...إلخ.

(٢) تتمثل هذه الدلالات في : المطر ، والسحاب ، والغسل ، والعطش ، والانهمار، والصب ،....إلخ.

الصورة الأولي: العَلاقَةُ التَّبَادُلِيَّةُ بَينَ لَفظِ المَاءِ والدَّمِ:

النَّوْعُ الأوَّلُ: وَضْعُ لَفْظِ المَاءِ مَوْضِعُ لَفْظِ الدَّمِ: هذا النوع يحمل دلالات توحي بأن الشاعر أراد أن يُهوِّلَ الأمرَ بكثرة الصب أو الانهمار أو السيلان ؛ لأن هذا النوع ما هو إلا مَعْرِضٌ لأدوات القتال، وصدى لموسيقى الحرب، تتقَطَّعُ فيه الرقاب، وتتصدَّعُ فيه الأبدان والأجساد.

كما أن ذِكْرَ الشاعرِ للفظ الماء يُخفِّفُ من وَطْأَةِ العامل النفسي ؛ لأن استقبالَ النفسِ للفظ الماء يشعر بالارتياح وإن كان يحمل في ذاته معنى الدم أو القتل أو الثأر، وذلك مثل قول أبي الطيب(١):

تَبكـــي عَلـــى الأَنـــصُلِ الغُمـــودِ إذا ... أَنـــــــذَرَها أَنَّـــــــهُ يُجَرِّدُهـــــــا
لِعِلمِهـــــا أَنَّهـــــا تَـــــصيرُ دَمـــــاً ... وَأَنَّـــــهُ فـــــي الرِقـــــابِ يُغمِـــــدُها
أَطلَقَهـــــا فَالعَـــــدُوُّ مِـــــن جَـــــزَعٍ ... يَـــــذُمُّها وَالـــــصَديقُ يَحمَـــــدُها
تَنقَـــــدِحُ النـــــارُ مِـــــن مَـــــضارِبِها ... وَصَـــــبُّ مـــــاءِ الرِقـــــابِ يُخمِـــــدُها

ذَكَرَ الشاعرُ لفظَ الماء في الأبيات مضافاً إلى الرقاب (ماء الرقاب) وهو يعني دماء الرقاب، لتسقط بهذه الإضافة جميعُ معاني الحياة، وأيضاً جميع معاني الرقة والسهولة التي يستبطنها لفظ الماء الذي اكتسب بهذه الإضافة – الجديدة – معاني القوة مشوبة بحمرة الدم الذي صرح به في قوله: (لعلمها أنها تصير دماً): أي تَخْتَضِبُ بالدماء.

والذي ساعد على بقاء مفهوم لفظ الدم على الرغم من ذكر لفظ الماء مُجاورَتُهُ لألفاظ تُشِعُ بالقوة (النصل –الغمد – الدم) لتترك آثارها على لفظ الماء، على حين يضفي لفظ الماء ومدلوله (الصَّبّ) – على المعنى – مفهوم الكثرة والاستهانة بدماء الأعداء.

(١) شرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٢/٣٣-٣٤.

وإذا كانت السيوف انهملت بماء الرقاب، فإن هذا الماء ما هو في الحقيقة إلا دماء الرقاب، ليطفئ النار التي تشعلها السيوف، نار الحقد والكراهية والثأر.

ومن ذلك أيضاً قول أبي الطيب(١):

يُقتَـــلُ العـــاجِزُ الجَبـــانُ وَقَـــد يَعِـــ .م. ـــجِزُ عَـــن قَطـــعِ بُخنُـــقِ المَولـــودِ
وَيُـــوَقّى الفَتـــى المِخَـــشُّ وَقَـــد خَـــوْ .م. وَضَ فـــي مـــاءِ لَبَّـــةِ الـــصِنديدِ

ففي إضافة لفظ (ماء) إلى لفظ (لَبَّةِ) التي تدل بأصل وضعها اللغوي على موضع النحر والذبح (٢) تَبَادُلٌ بين الماء والدم، فالشاعر استعاض بلفظ الماء –هنا– عن لفظ الدم، ونكَّرَ لفظ الماء ليدل على إيهامه وعموم تهويله، وأكسبه تعريف الإضافة من لفظ(لَبَّة) لتترك أثرها على المعنى، وليعبر بهذه الإضافة وبهذا الترشيح بلفظ (خَوَّضَ) عن الدم، ساعده على هذه الدلالات ألفاظ (القتل – والقطع – والخوض) الواردة في السياق، ولقد تأثر بهذا المعنى ابن الرومي فقال(٣):

فَفَـــمٌ شَـــارِبٌ رَحِيقـــاً وَطَـــرَفٌ شَـــارِبٌ مَـــاءَ لَبّـــةٍ وَسِـــخَابِ

و(مَاءُ النُّحُورِ) لَيس ببعيد عن(مَاءِ اللَّبَةِ)، فقال " حَيْصُ بَيْصُ"(٤):

مِـنْ مُـوردي مَـاءِ النُّحُـورِ جِيـادُهمْ والقـــاعُ يخْفـــي بالعجاجـــةِ وِرْدُهُ

فالمقصود بـ (ماء النحور) دماء النحور،لأن ألفاظ:(الوِرْدِ، والجِيَادِ، والقاع) مـن دلالات القـوة، كمـا أن " النَّحْـرَ "مـن خـواص الـذبح والـدم،قال ﷺ:

(١) معجز أحمد ١/٨٠.
(٢) اللسان :(مادة : لبب).
(٣) ديوان ابن الرومي، شرح / أحمد حسن بَسَج ١/١٩٠.
(٤) ديوان حيص بيص ١/٣١٧.

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾ (٥)، وشاركه في هذا المعنى ابنُ الأَبَّار البَلَنْسِيّ، فقال(٦):

رُدَيْنِيَّـــةٌ قَامَـــتْ لهـــا بِنيُوبِهَـــا ... لِتُوغِلَهـــا مـــاءَ النحُـــورِ وتُولِغَـــا
كَـــأنَّ الـــرَّدَى آسٍ وهُـــنَّ مَبَاضِـــعٌ ... تُريـــقُ دَمَ البـــاغِينَ مَهْمَـــا تَبَيَّغَـــا

وإذا كان لفظ الماء يَطُلُّ بحضوره في الأبيات السابقة إلا أن اقترانه بالرقاب (ماء الرقاب)، وباللبة (ماء لبة)، وبالنحور (ماء النحور) ؛ يجعل للدم سلطان الحضور، وسلطة الولاية بدلاً منه.

ولذلك يقول المتنبي – أيضاً – يرثي محمد بن إسحاق التَّنُوخِيّ(١):

أَيّـــامَ قـــائِمُ سَـــيفِهِ فـــي كَفِّـــهِ الـــ ... ـــمُنى وَبـــاعُ المَـــوتِ عَنـــهُ قَـــصيرُ
وَلَطالَمـــا اِنهَمَلَـــت بِمـــاءٍ أَحمَـــرٍ ... فـــي شَـــفرَتَيهِ جَمـــاجِمٌ وَنُحـــورُ

فقد توسط لفظ الماء بين السيف وشفرتيه وبين الموت والجماجم، فَفَزِعَ الماءُ – الذي يحمل دلالة الحياة – من هذا التوسط، وأُسقطت دلالةُ الموت عليه، فحضر الماء مشوباً بحمرة الدم، ففقد بهذه الحمرة ذاته ؛ إذ (لا لون للماء) (٢)، على الرغم من حضوره لفظاً، وحضور الدم بسبب هذه الحمرة على الرغم من غيابه لفظاً.ويقول المتنبي أيضاً(٣):

تُـسايِرُها النيـرانُ فـي كُـلِّ مَـسلَكٍ ... بِـهِ القَـومُ صَـرعى وَالـدِيارُ طُلـولُ

(٥) سورة الكوثر ، آية ٢.
(٦) ديوان الأبَّار البَلَنْسِي: أبو عبد الله محمد (ت٦٥٨هـ)، تحقيق/ عبد السلام الهرَّاس ، صـ ٣٨١ ، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – المملكة المغربية ، طبعة ١٤٢٠هـ . ١٩٩٩م.
(١) معجز أحمد ٢٦٠/١ ، وشرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٢٣١/٢.
(٢) سبق ذلك في لزوميات أبي العلاء في مبحث : التقلب والتلون ، صـ ٢٢.
(٣) معجز أحمد ٣٤٣/٣.

وَكَـرَّت فَمَـرَّت فـي دِمـاءِ مَلَطيَـةٍ مَلَطيَـــــةُ أُمٌّ لِلبَنـــــينِ ثَكـــــولُ
وَأَضـعَفنَ مـا كُلِّفنَـهُ مِـن قُباقِـبٍ فَأَضـحى كَـأَنَّ المـاءَ فيـهِ عَليـلُ

وتظهر النار مع الماء والدم الفَيْنَةَ بعدِ الفَيْنَة في شعر أبي الطيب، فنشهد حضورها هنا بعد أن أُنْتُزِعَتْ من الماء دلالةُ الكثرة بحضور لفظ الدم (فمرت في دماء ملطية)، ويترك الدمُ الماءَ ضعيفاً عليلاً بعد أن سُلِبَتْ منه دلالةُ القوة (كأن الماء فيه عليل)، والماء ليس من دلالته العلة أو المرض، وإنما هي من خواص ودلالات الدم، وأَثَر من آثار الموت والفناء، ففي الأبيات تبادل بينهما.

- **النَّوْعُ الثَّانِي: وَضْعُ لَفْظِ الدَّمِ مَوْضِعُ لَفْظِ المَاءِ:** إذا كان لفظ الماء يُوضع مَوضِعَ لفظ الدم ليحمل دلالاته المتمثلة في معاني القوة والشدة، فإن لفظ الدم يُوضع مَوضِعَ لفظ الماء، وذلك إذا كان **الموصوف لونه أحمر مثلاً**، أو إذا أراد الشاعر أن **يكسبه هذا اللون** ؛ ليعطي للأمر مَزِيَّةَ التَّفخِيمِ والتَّهويلِ ؛ فتبقي دلالات الدم في السياق لتُعَبِّرَ عن هذا الانطباع ويغيب لفظ الماء، وهذا عن طريق المشابهة أو المجاورة، وللسياق دور فعال في هذا التشابه والتجاور؛ ولهذا نجد للدم حضوراً مع ما يتكون منه الماء، أو مع ما فيه ماء،... إلخ،خلافاً لطبيعته ويبقى الدم أيضا شاهداً لهذا التغيير المُنصبِّ على الصورة.

وإذا كانت الحمرة من دلالات الدم إلا أن الشاعر عندما يُعَبِّرُ بها في سياق الصفاء أو الرقة تستبطن دلالاتِ الماء، وذلك مثل قول أبي الطيب المتنبي (١):

(١) معجز أحمد ٧٤/١.

كُـــلُّ شَـــيءٍ مِـــنَ الـــدِماءِ حَـــرامٌ شُـــربُهُ مـــا خَـــلا دَمَ العُنقـــودِ

ففي قوله (دم العنقود) تبادل بين الماء الذي غاب حضوره،وبين الدم الذي طَلَّ بحضوره، مُعزِّزاً هذا الحضور بقوله: (الدماء حرام)، فالمقصود من قوله (دم العنقود) **مـاء العنقـود:** أي العنـب، والمعنـى للخمـر[1]، لـذلك يقولـون: مـاء العنب،وماء التفاح،.... إلخ. ويقول صاحب العود الهندي: " وقَدْ عَلِمْتَ أنَّ مَا لا يُسْكِرُ مِنْ مَاءِ العَنَاقِيْدِ... لا يُسَمَّي خَمْراً [2]، لأن أصلَ الخمر ماءٌ مَشُوْبٌ بحمرة، وجاء بيت عَبدِ الله بنِ هَمَّام السَّلُولِيِّ على أصله دون استعارة[3] فقال[4]:

مَـــنْ ذَا يُحَـــرِّمُ مَـــاءَ المُـــزْنِ خَالَطَـــهُ فِـــي بَطْـــنِ خَابِيَـــةٍ مَـــاءُ العَنَاقِيْـــدِ

ومن هذا النوع أيضاً قول المتنبي حاملاً هذا المعنى للخمر[5]:

فـــي كُـــلِّ يَـــومٍ بَينَنـــا دَمُ كَرْمَـــةٍ لَـــكَ تَوبَـــةٌ مِـــن تَوبَـــةٍ مِـــن سَـــفكِهِ

ففي قوله: (دَمِ كَرْمَةٍ) [6] تبادل بين لفظ الماء والدم، فالمقصود من (دَمِ

(1) ينظر : شرح البيت السابق الصفحة نفسها.
(2) العُودُ الهِندِيُّ عن أَمَالِيّ في دِيوَان الكِنْدِيّ ،" مجالس أدبية في ديوان المتنبي ، تأليف علامة حضرموت السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف(ت ١٣٧٥هـ) ، عُنِيَ بِهِ / محمد مصطفى الخطيب ،مج٢/٢٦٤ ، دار المنهاج ، الطبعة الثانية ، ١٤٣١ هـ – ٢٠١٠ م.
(3) ففي قوله (دم العنقود) استعارة ، حيث شبه الماء بالدم ، وحذف المشبه ، وتناسى التشبيه ، وادَّعى أن المشبه به جنس من أجناسه أو دلالة من دلالاته ، على سبيل الاستعارة التصريحية.
(4) نهاية الأرب في فنون الأدب ، لشهاب الدين النويري ، ٥١٢/٢٠ ، دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة ، ط١ ، سنة ١٤٢٣هـ.
(5) معجز أحمد ٢٠١/٢.
(6) هذه هي كلمة الذات الشاعرة النابضة في مكانها من لفظها ، وفي أقاصي أمدها من التأثير، ولو سقطت أو استبدلت بغيرها لسقط معها المضمون الجديد والمعنى الدلالي ، ولغاب أيضاً كل عوامل التقويم التي ساعدت على إخراج هذه الصورة.

الكَرْمَةِ) مَاءُ الكَرْمَةِ وهي الخمر أيضاً(٥)، استعاض الشاعر عن معنى الشراب واللذة، بالدماء والسفك ؛ ليُعزِّزَ هذا التبادل، وليصنع هذه العلاقة التبادلية بين دلالات القوة ودلالات الرقة والصفاء، الماثلة في الماء الغائب وفي الدم الحاضر، مستعيناً بالصورة الاستعارية(٦) التي لم يجنح إليها الشاعر جُنوحِ الحَنبَلِيَّةِ الفَنِّيةِ،وإنما قالها علي سَجِيَّتِه غَيرِ مُتَكَلِّفٍ وَلا رَاغِبٍ فَي الكَدِّ والتَّعَبِ.

أو إِذَا أَرَادَ الشاعرُ أنْ يُعطيَ للأمرِ مَزيَّةَ التَّفخيمِ والتَّهويلِ، أكْسَبَ مَوصوفَهُ هَذه الصِّفَةَ (الحُمْرَةَ)، ويتَّضِحُ ذَلك فِي قَولِ أبِي الطَّيبِ(٧):

بَلَلتُ بِها رُدنَيَّ وَالغَيمُ مُسعِدي وَعَبرَتُهُ صِرفٌ وَفي عَبرَتي دَمُ
وَلَو لَم يَكُن ما اِنهَلَّ في الخَدِّ مِن دَمي لَما كانَ مُحمَرّاً يَسيلُ فَأَسقَمُ

ففي قوله (عَبْرَتِي دَمُ – مَا انْهَلَّ.. مِنْ دَمِي) تبادل بين الماء في الحقيقة والدم في المجاز؛ لأن دلالات القوة ماثلة في السياق بحضور لفظ الدم(محمراً – أسقم)، بَرْهَنَ بِهَا الشاعرُ على دَمَوِيَّة عَبرتِه ودَمْعَتِه، فاستبدل الدمع (الماء) السائل المنهمر من عينة بالدم، معززاً هذا التبادل، بحمرة الدم وعلة المرض، وهما من خصائص انهدام الحياة، ويقوِّي هذا التبادل ويؤكده في موطن آخر فيقول(٨):

أَشاروا بِتَسليمٍ فَجُدنا بِأَنفُسٍ تَسيلُ مِنَ الآماقِ وَالسِّمِ أَدمُعُ

(٥) ينظر : شرح البيت ، معجز أحمد ٢٠١/٢.
(٦) البيت به : استعارة تصريحية كسابقتها.
(٧) معجز أحمد ٤٣/٢.
(٨) معجز أحمد ١١١/١.

ولقد سبقه لهذا المعنى بشارُ فقال(٢):

وَلَـيسَ الَّـذي يَجـري مِـنَ العَـينِ ماؤُهـا وَلَكِنَّهـا نَفـسٌ تَـذوبُ فَتَقطُـرُ

فهو يرى أن عينه تسيل بالروح،" لأنها كانت دماً، وخروج الدم فيها خروج الروح(٣) ".

فالتبادل بين الماء والدم صورة ثابتة في قصائد أبي الطيب، يُظهرها السياقُ عن طريق المشابهة الماثلة في علم البيان وغيره، دون تكلف منه أو رغبة أو قصد.

❖ **الصورة الثانية: العَلاقَةُ الدَّلالِيَّةُ بَينَ المَاءِ والدَّمِ:**

- **النَّوْعُ الأوَّلُ: دَلالاتُ الدَّمِ مَعَ لَفظِ المَاءِ:** قد يغيب لفظ الدم وتبقى دلالاته الماثلة في أدوات القتال: كالسيف، والأسنة، والجياد، والحديد،...إلخ مع لفظ الماء ؛ لتعبِّر عن القوة والشدة، أو الموت والقتل،أو الحرب والثأر، فهذه الكلمات لها القدرة على اتخاذ دلالات متنوعة تبعاً للاستعمالات المختلفة التي تستعمل فيها.

فحضور لفظ الماء مع دلالات الدم يحمل في نفسه معنى الدم، كما يحمل فقدان الحياة، وهذه دلالة معنوية، أكسبه إياها السياقُ، تحمل في ذاتها الصورة التي يتنفس فيها الشاعر، وتنبلج منها أضواء القوة التي تأخذ دلالتها من الدم على أنه أصل الصورة التي دلَّت بمفردها على المعنى الغائب في لفظ الماء، وربما دلت على الحدث والزمن معاً.

---

(٢) ديوان بشار بن برد ، شرح / محمد الطاهر ابن عاشور ، صححه/ محمد شوقي أمين ،٤٨/٤ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ، سنة ١٣٨٦هـ . ١٩٦٦م.

(٣) معجز أحمد ١١١/١.

إن حاسة الشاعر النابضة المفكرة تأخذ مادتها، وتكون صورتها – في مثل هذا السياق– من هذه الدلالات التي تختضب بالدماء، وتموج بالموت، فالأسنة والسيوف والحديد والجياد.....كأن الشاعر يسمع لها زَمْجَرَةً كزمجرة البحر الهائج مع الريح العاتية، أو يسمع لها صَلْصَلَةً ودويّاً وهدّاً شديداً كأنها تَفْتَرِسُ – من وجهة نظره – أسبابَ الحياة، وكأن في نفسه أبنية تنقض وتتهدَّم، كل هذه الأحاسيس المعنوية والدلالات الحسية تتعانق مع لفظ الماء الذي اكتسب هذه المعاني من السياق عن طريق المجاورة، أو عن طريق المشابهة ؛ لتعبر عن عاطفة الشاعر الذاتية المكلومة في صورة دموية.

ولعل فكرة ورود الحديد مع الماء في شعر المتنبي يكشف عن هذه الجوانب، وما فيها من دلالات تظهر مناط القوة والشدة في صدى الحرب وموسيقى القتال، حيث قال(١):

أَفْــرَسُ مَــنْ تَــسْبَحُ الجِيَــادُ بِــهِ وَلَــــيْسَ إلّا الحَدِيْــــدَ أَمْــــوَاهُ

فلقد جاورت دلالاتُ الدم (الحديد) لفظَ (أمواه) الذي يدل بأصل معناه اللغوي على الرقة والصفاء، فلقد جعل الشاعر الماءَ الذي تسبح فيه الجيادُ حديداً، وهو يعني الدروع والسيوف والسلاح، وهذه من دلالات الدم، عزَّزَ هذه الدلالات بقوله:(الجياد) التي تدخل في تحديد العلاقة التي تُبْنَى عليها الصورة، وغياب لفظ الدم مع الإبقاء على دلالاته يثبت هذه العلاقة الدلالية بينهما، كما أن لفظ (مَنْ) قد بلغ الغاية – هنا– في التصويره الأدبي ؛ لما يفيده من العموم والشمول.

ولعل فكرة وُرُوْدِ السيف الماء تحمل معها فكرة المعاودة والتكرار لهذا الورود، فكلما خامر السيف العطش ورد الماء ليشرب من الجماجم، لذلك قال

(١) معجز أحمد ٢/ ٥٣٥.

المتنبي[1]:

كَـأَنَّ عَلَـى الجَمـاجِمِ مِنـهُ نـاراً وَأَيـدي القَـومِ أَجنِحَـةُ الفَـراشِ
كَـأَنَّ جَـوارِيَ المُهَجـاتِ مـاءٌ يُعاوِدُهـا المُهَنَّـدُ مِـن عُطـاشِ

وتظهر النار مرة أخرى مع الدم والماء، وهو ظهور متكرر في شعر أبي الطيب بين هذه الثُلاثِيَّةِ، ففي قوله (الجماجم) التي تحمل معنى الدم، يخلع على ممدوحه صفة الفروسية والشجاعة، فهو " من شدة ضربه الجماجم صار كأن عليه ناراً [2]"، ثم يعود إلى الماء وكأن الحرب تهدأ فَنَاسَبَتْ رِقَّةَ الماء، أو تشتعل فتحتاج إلى الماء، فتتوسَّطُ دلالات الدم (المُهجات) بين مدلول الماء ولفظه، ساعد هذا التوسط وهذا التجاور وهذا الالتصاق بين المشبه والمشبه به (جواري المهجات ماء)على حضور لفظ الدم من خلال الكناية، على حين يحضر لفظ الماء صراحةً مُعضداً بكلمة جواري[3] السابقة له، وكلمة العطش التالية له، لالتصاق هاتين الكلمتين بالماء أكثر من التصاقهما بالدم.

وليس ما يفعله المتنبي جديداً في الشعر العربي، فلقد أورده الشعراء القدامى، وعاوده الشعراء في العصر الأموي، وحسن من صورته أبو الطيب[4].

---

(١) معجز أحمد ٢/ ٥٠٢ ، وشرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٣١٨/٢.
(٢) معجز أحمد ٢/ ٥٠٢.
(٣) قال ﷻ:﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ الرحمن ، آية ٣٤.
(٤) فهذا الارتباط بين دلالات الدم والماء قد أورده الشنفرى في شعره ، فقال:

وَأَبيَضُ مِن ماءِ الحَديدِ مُهَنَّدٌ مُجِذٌّ لِأَطرافِ السَواعِدِ مِقطَفُ

ديوان الشنفرى: عمرو بن مالك(نحو ٧٠ق.هـ)،تحقيق/ إميل بديع يعقوب ،صـ ٥٣، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ . ١٩٩٩م.
وأخذ جميل بثينة من قوله فقال :

وَأَبيَضَ مِن ماءِ الحَديدِ مُهَنَّد لَهُ بَعدَ إخلاصِ الضَريبَةِ رَونَقُ

ديوان جميل بثينة ، دار صادر ، صـ ٩٢ ، ودار بيروت للطباعة والنشر – بيروت ، طبعة سنة ١٩٨٢م.صـ ٣٤.

- **النَّوْعُ الثَّانِي: دَلالاتُ المَاءِ مَعَ لَفْظِ الدَّمِ:** وتنعكس الصورة، فينتفي لفظ الماء، وتبقى دلالاته الماثلة في: المطر، والسحاب، والرِّيِّ، والعطش، والسُّقيا، والصَّبِّ...إلخ مع لفظ الدم الحاضر جسداً ومعنى، ليعبر عن انهدام الحياة، وغياب العقل في وقت حضوره.

هذه الدلالات السابقة رغم ما تحمله من معاني قديمة، تتمثل في: الرقة، والصفاء، والليونة، إلا أنها لا تستطيع أن تصور وحدها روافد المعنى الجديد الذي يشكله التيار العام للصورة في القصيدة، إلا عن طريق مجاورتها للفظ الدم الذي يثير فيها هذه المعاني الجديدة.

كما أن هذه الكلمات تقدم لنا معاني ليس من السهل أن نتصور – ولو ذُكِرَ لفظُ الدم دونها – أيَّ جَوٍّ يريد أن يضعنا فيه الشاعر، أو أيَّ جَوٍّ تستوحيه هذه الكلمات، ومن ثم فلابد من حضورهما معاً.

فهذا النوع من هذه الصورة لا يريد به الشاعر – في معظم قصائده –غير التعبير عن كثرة السيلان والصب والانهمار، ويتضح ذلك في قوله[1]:

فَـــــدانَتْ مَـــــرافِقُهُنَّ البَـــــرَى عَلـــــى ثِقَـــــةٍ بِالـــــدَمِ الغاسِـــــلِ

ففي قوله (بالدم الغاسل)، خروج عن المعنى الأصلي لكلمة (الغُسْلِ) إلى معنى جديد استوحته من السياق ؛ لأن الغسل من خواص ودلالات الماء، قال(ﷻ) [2]:﴿ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ....﴿٦﴾ ﴾، فالماء يعبر عن الرقة وكذلك دلالاته، ولكن أكسبه السياقُ المتمثل في الإضافة دلالاتٍ جديدةً تعبر عن الشدة والموت.

فصورة الغسل هنا تثير معنى الخوف والفزع، وكذلك لفظ (السُّقيا –

(١) معجز أحمد ٦١/٣.
(٢) سورة المائدة ، من آية ٦.

والرِّيّ) حاملاً بعضاً من هذه المعاني، في قوله(١):

سَـقى الـدَمُ كُـلَّ نَـصلٍ غَيـرِ نـابٍ وَرَوّى كُـلَّ رُمـحٍ غَيـرِ راشِ

إن دلالات الماء الحاضرة في قوله (سقى – وروى) تحمل من دلالات المجاورة لها معنى الدم، مع ملاحظة أن هذه الدلالات التي اكتسبت معنى الشدة التي عُضِّدَتْ بذكر (النصل، والرمح)– وهما أداة متخصصة لسفك الدماء– أَفْقَدَتُ(السقيا – والريَّ) دلالتهما القديمة وأصبح – كل منهما– حاملاً هذه المعاني الجديدة ؛ ليكونا سبباً في الموت والفناء بدلاً من العيش والحياة، وقريب منه قوله(٢):

كَـم مِـن دَمٍ رَوِيَـت مِنـهُ أَسِـنَّتُهُ وَمُهجَـةٍ وَلَغَـت فيهـا بَـواتِرُهُ

فالرِّيُّ: إتمام الشرب، وكذلك لفظ " ولغت": صار اسماً للشراب مطلقاً(٣)، ولكنهما يفقدان هذه الدلالة بسبب مجاورتهما لفظ الدم، ويحملان دلالة الشدة والقسوة، ليدلان على أن العلاقة بين الماء والدم علاقة دلالية، تجمعهما صداقة تتمثل في قوام السيولة، وعِمَادةِ الحياة، فكل منهما يتماهى في الآخر جسداً ومعنى

ويعبر المتنبي عن كثر ة الصب والانهمار، فيقول(٤):

مَلِلـتُ مُقـامَ يَـومٍ لَـيسَ فيـهِ طِعـانٌ صـادِقٌ وَدَمٌ صَـبِيْبُ

ففي قوله:(صبيب) تعبير عن الكثرة، فهي" فعيل" بمعنى مفعول:أي

(١) معجز أحمد ٤٦٦/٢.
(٢) السابق ١٥٩/١.
(٣) السابق ١٦٠/١.
(٤) السابق ٣٥٧/٣.

مصبوب تحمل من السياق عن طريق المجاورة معنى الموت والقتل، ويبقى في دلالتها الأصلية أو لازم معناها ما يدل على محذوف يعبر عن أصل وضعها اللغوي.

❖ **الصورة الثالثة: غيابُ لفظِهما وحضورُ دلالتِهما:** قد يغيب اللفظان معاً عن السياق ويحضر ما يدل عليهما، فتأتي دلالات الماء التي تثير معاني الرقة والصفاء فتكتسب معاني الشدة والقوة من دلالات الدم الحاضرة في السياق أو المجاورة لها، ولا ضير في تقديم أحدهما على الآخر.

وبحضور الأسنة والمطر تتوالى الأبيات كاشفة عن غياب الدم والماء، ومجيئها مصحوبة بذكر أدلتهما، يقول أبو الطيب المتنبي(١):

سَحائِبُ يُمطِرنَ الحَديدَ عَلَيهِمُ ... فَكُلُّ مَكانٍ بِالسُيوفِ غَسيلُ
وَأَمسى السَبايا يَنتَحِبنَ بِعَرقَةٍ ... كَأَنَّ جُيوبَ الشاكِلاتِ ذُيولُ
وَعادَت فَظَنّوها بِمَوزارَ قُفَّلاً ... وَلَيسَ لَها إِلّا الدُخولَ قُفولُ
فَخاضَت نَجيعَ الجَمعِ خَوضاً كَأَنَّهُ ... بِكُلِّ نَجيعٍ لَم تَخُضهُ كَفيلُ
تُسايِرُها النيرانُ في كُلِّ مَسلَكٍ ... بِهِ القَومُ صَرعى وَالدِيارُ طُلولُ

فنلحظ غياب لفظ الدم وحضور دلالته من خلال (الحديد، والسيوف، والنجيع)، كما نلحظ غياب لفظ الماء وحضور دلالته من خلال (السحاب، والمطر، والغسل) ومن خلال حفظ الخوض الذي تكرر في النص ثلاث مرات حاملاً معه دلالة الكثرة من جانب المعنى، ودلالة القلق والتوتر من جانب التكرار اللفظي والتردد بين الإيجاب والسلب في (خاضت، خوضاً، لم تخضه)،

(١) معجز أحمد ٣٤١/٣، وشرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٢٢٤/٣.

هذا التوتر الذي شاع في النص من بدايته– كما سبق– [١]:

لَيـــالِيَّ بَعـــدَ الظـــاعِنينَ شُـــكولُ طِـــوالٌ وَلَيـــلُ العاشِـــقينَ طَويـــلُ

ساعد على غيابهما خاصة وأن السحائب كانت خيلاً، ومطرها كان حديداً، وكلمة الغسل سبقت بالسيوف، ومفعول خاضت كان نجيعاً ؛ ليحضر بهذه الدلالات الدم ليعبر عن الكثرة والشدة والقسوة الحاضرة دوماً في قصائد الحروب والقتال عند أبي الطيب.

هذا التماهي بين الماء والدم، أو هذه العلاقة التبادلية بينهما بصحبة السيف والموت والمطر والسحاب نلحظها في قول المتنبي[٢]:

قَـــومٌ إِذا أَمطَـــرَت مَوتـــاً سُـــيوفُهُمُ حَـــسِبتَها سُـــحُباً جـــادَت عَلـــى بَلَـــدِ[٣]

فالطرفان الماء والدم غائبان لفظاً حاضران معنى، حضر الماء إلى النص من خلال دلالات السحاب والمطر المتضمن لدلالة الخير[٤] (جادت على بلد)،

---

(١) معجز أحمد ٣٣٢/٣، وشرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٢١٧/٣

(٢) معجز أحمد ٢٣٨/١، وشرح ديوان المتنبي للبرقوقي ٧٣/٢.

(٣) ولا يغيب ما في الصورة من استعارة مكنية ، حيث شبه السيوف بالسماء ،وحذف المشبه به ، على سبيل الاستعارة المكنية. وفي قوله :(موتاً) مجار مرسل علاقته المسببية أيضاً.

(٤) ليس دوماً دلالة لفظ " المطر " على الخير ، بل يدل على الخير والشر أيضاً ، فمن دلالته على الشر قوله ﷻ : ﴿ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ النمل آية ٥٨. ومن دلالته على الخير قوله ﷻ :﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۖ ﴿٢٤﴾ ﴾ الأحقاف آية ٢٤. ومن حيث دلالته على = =الشر في أقوال الشعراء قول المتنبي متأثراً بآية الأحقاف السابقة من حيث المعنى :

غِرٌّ طَلَعتَ عَلَيهِ طِلعَةَ عارِضٍ مَطَرَ المَنايا وابِلاً وَرَذاذا

معجز أحمد ٢٥٣/١

ومن حيث دلالته على الخير والشر معاً قوله : =

بلد)، فارتبط بالماء دلالةُ الحياة، إلا أن هذه الدلالة سرعان ما تغيب لحضور الموت الذي هو مفعول المطر، وحضور السيوف الذي هو فاعله ؛ لتظهر دلالة الدم الذي هو نتيجة لتأثير السيف وعلامة الموت.

وتتكرر هذه الصورة الفنية في الشعر المتنبي كثيراً منها قوله(١):

عَلى سابِحٍ مَوجَ المَنايا بِنَحرِهِ غَداةَ كَأَنَّ النَبلَ في صَدرِهِ وَبلُ

وقوله(٢):

بَناها فَأَعلى وَالقَنا تَقرَعُ القَنا وَمَوجُ المَنايا حَولَها مُتَلاطِمُ

وقوله(٣):

غَمامٌ رُبَّما مَطَرَ اِنتِقاماً فَأَقحَطَ وَدقُهُ البَلَدَ المَريعا

وقوله(٤):

وَقَد خَفَقَت لَكَ الراياتُ فيهِ فَظَلَّ يَموجُ بِالبيضِ الحِدادِ

= **وَمُمطِرَ المَوتِ وَالحَياةِ مَعاً وَأَنتَ لا بارِقٌ وَلا راعِد**

معجز أحمد ٣٨٢/٤.

ربما لهذا السبب (وهو دلالة لفظ المطر على الخير والشر) ، اعتمد المتنبي عليه ، ولم يعتمد على لفظ " الغيث " ،فلم يقل " **قَومٌ إذا غاثت مَوتاً سُيوفُهُمُ** "؛لأن لفظ الغيث لا يأتي إلا للخير ، قال ﷻ :﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ..... ﴿٢٨﴾ ﴾ الشورى آية ٢٨.وفي الحديث " فَادْعُ اللهَ يَغِيثُنَا" صحيح مسلم ٦١٣/٢.

(١) معجز أحمد: ١٦٩/١.

(٢) السابق: ٤٢٣/٣.

(٣)السابق: ٣٢١/١.

(٤)السابق: ٣٠٦/١.

وغير ذلك من الصور التي نلحظ فيها أن لهذه الأدوات حضوراً في هذه العلاقة الدلالية بين الماء والدم، حتى أن حضور أحدهما يستدعي حضور الآخر وإن غاب في باطنه هذه الدلالات التي أسقطها السيف الذي كان في النص – بحضور الخيل والأسنة والنار – سحاب ومطر وغسل،هذه السيولة – المتمثلة في الطرف الثاني – كانت مجالاً للعلاقة التبادلية بين الماء والدم، أو تماهي الماء في الدم، أو الدم في الماء، أو غيابهما ومثول دلالتهما.

وليس ما يفعله أبو الطيب المتنبي قد تجاوز الحد المقبول، أو به حذلقة لغوية، أو عبث بمقدرات الأسلوب الأدبي، سعياً منه وراء الغموض المقلق الذي لا يكشف عن مضمون أو يشف منه معنى، أو يوحي بدلالة، ولكنه بلا شك أعلى الشعراء قدراً وصوتاً، وأكثرهم شَغَباً وشَغَفاً، يسعى إلى التجديد والتغيير الذي تنبعث منه جديد المعني، وبواكير الأفكار.

ولا بد أن يدرك الجميع أن اللغة العربية متجددة، ليس بها سدود مانِعَةٌ، أو أغلالُ تَبَعِيِّةٍ مقيِّدَةٌ، فالقوة الطاردة في أعماق هذه اللغة –الممثلة في القرآن الكريم الذي لا يبلى مع كثرة الرد– تُمَزِّقُ كلَّ أغلالِ القيود، وتسطو على أي تقليد، وتتجدد لتواكب كل العصور الحضارية والأزمان المعاصرة، فهي لغة ثرية بكل المقاييس.

الخاتمة

لهذه العلاقة في شعر المتنبي حضور واضح شأنه شأن الشعر العربي عامة،إلا أنها ظهرت بوضوح في شعره، مستوعباً بهذا الحضور دلالات الماء المتعددة والمتناقضة والمتقابلة والمتقلبة، ولكن حضور الماء في شعره جاء مختلفاً في ارتباطه بدلالات القوة من السيف والأسنة والخيل والجياد والنار والثأر....، جاء هذا الاختلاف والتفاوت تبعاً لغياب لفظ الدم عن هذه الدلالات، أو حضوره معها، فعند غيابه عن النص يظل الماء محتفظاً بذاته ولا يفقد شيئاً من سماته إلا مع أخذه من السياق الذي تظهر فيه أدوات القتال: كالسيف والأسنة...شيئاً يعزِّز فيه دلالات القوة وتطرح عنه دلالات الليونة والسهولة لأنها لا تجاري السياق ولا تتماشى مع معانيه.

وعند حضور الدم إلى النص بدلاً من لفظ الماء أو مع أدوات القتال يقيم مع لفظ الماء علاقة تبادلية أو علاقة دلالية، فيغيب أحدهما في الآخر، ويظل الدم مع أدوات القتال شاهداً على هذا الحضور، وعاملاً مؤثراً فيه، بعد أن أصبح للسيف أو الحديد مطرٌ وسحابٌ وورود وغسل وعطش....فيصنع بهذه العلاقات وشائج قوية بين سائلين يتماهى كل منهما في الآخر من خلال علاقة تبادلية أو تاركاً علاقة جدلية بين الدلالتين.

وإن كان المتنبي قادراً على التجديد والتفرد إلا أن ارتباط الماء بالدم مثقول في الشعر العربي القديم، أشادت به هذه الدراسة في بعض مواطنها.

كما أن هذه الدراسة تعد إطاراً عاماً لفهم هذه الظاهرة، لكي يتم وضعها في السياق الأدبي الأنسب.

فهرس المصادر والمراجع

١- آثار البلاد وأخبار العباد، للقزويني: زكريا بن محمد، دار صادر – بيروت، سنة ١٩٦٠م.

٢- أشجع السلمي " حياته وشعره "، خليل بنيان حسون، دار المسيرة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

٣- الأضداد، للأنباري: محمد بن القاسم، تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت، ١٤٠٧هـ. ١٩٨٧م.

٤- الأمكنة والمياه والجبال، للزمخشري، تحقيق/ إبراهيم السامرائي، مطبعة السعدون – بغداد (بدون).

٥- البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق/ وداد القاضي، دار صادر – بيروت، ط١، سنة ١٤٠٨ هـ. ١٩٨٨م.

٦- بنو تميم شعرهم في العصر الجاهلي، جمع وتحقيق/ عبد الحميد المعيني، منشورات نادي القصيم الأدبي – السعودية، سنة ١٩٨٢م.

٧- تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، للإمام الشيخ /حسين بن محمد بن الحسن الديار بكري، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع – بيروت (د/ط،ت).

٨- التشبيهات،لابن أبي عون(ت٣٢٢هـ)، تحقيق/ عبد المعيد خان، طبع في مطبعة جامعة كمبردج البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق/ عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي – القاهرة، سنة ١٩٧٥م.

٩- جامع البيان في تأويل القرآن،محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق/ أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

١٠- الجامع لأحكام القرآن،(تفسير القرطبي) للقرطبي:أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري،تحقيق/ أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ. ١٩٦٤م.

١١- الحيوان، للجاحظ: أبي عثمان عمر بن بحر، تحقيق/ عبد السلام هارون، الطبعة الخامسة، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – القاهرة، سنة ١٣٨٦هـ . ١٩٦٦م.

١٢- الحماسة البصرية، لأبي الحسن البصري، تحقيق/ مختار الدين أحمد، دار عالم الكتب – بيروت (د/ ط، ت).

١٣- حماسة القرشي، لعباس بن محمد القرشي النجفي، تحقيق/ خير الدين محمود قبلاوي، وزارة الثقافة السورية- دمشق، الطبعة: (بدون)، ١٩٩٥م.

١٤- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ) تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة،ط٤،١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٥- ديوان ابن الأبَّار البَلَنْسِي: أبو عبد الله محمد (ت٦٥٨هـ)، تحقيق/ عبد السلام الهرَّاس، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – المملكة المغربية، طبعة سنة ١٤٢٠هـ. ١٩٩٩م.

١٦- ديوان ابن الرومي، شرح وتحقيق/ أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٣، سنة ١٤١٣هـ. ٢٠٠٢م.

١٧- ديوان ابن المعتز، شرح وتقديم / ميشيل نعمان، الشركة اللبنانية للطباعة والنشر – بيروت، سنة ١٩٦٩م.(بدون ط).

١٨- ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي: أبي زكريا يحيى بن علي (٥١٢هـ)، تحقيق/ محمد عزام، دار المعارف – مصر، ط٤، سنة ١٩٥١م.

١٩- ديوان البحتري، عنى بتحقيقه / حسن كامل الصيرفي،ط٣، دار المعارف – مصر، سنة ١٩٦٤م.

٢٠- ديوان بشار بن برد، شرح / محمد الطاهر ابن عاشور، صححه/ محمد شوقي أمين،٤٨/٤ مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، سنة ١٣٨٦هـ. ١٩٦٦م.

٢١- ديوان جميل بثينة، دار صادر – بيروت (د / ط، ت).ودار بيروت للطباعة والنشر – بيروت، طبعة سنة ١٤٠٢هـ. ١٩٨٢م.

٢٢- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، تحقيق/ سيد حنفي، طبعة الهيئة المصرية العامة، سنة ١٩٧٤م.

٢٣- ديوان الحماسة، لأبي تمام: حبيب بن أوس الطائي، تحقيق/ محمد عبد المنعم خفاجي، القاهرة، سنة ١٣٩٧هـ.

٢٤- ديوان حاتم الطائي، تحقيق/ سليمان جمال، مطبعة المدني – القاهرة، سنة ١٩٧٥م.

٢٥- ديوان خَيْص بَيْص:الأمير شهاب الدين أبي الفوارس: سعد بن محمد التميمي البغدادي (ت٥٧٤هـ)، حققه وضبط كلماته/ مكي السيد جاسم، وشاكر هادي شاكر، منشورات وزارة الإعلام – الجمهورية العراقية. طبعة سنة ١٩٧٤م.

٢٦- ديوان الخنساء، المكتبة الثقافية – بيروت (بدون).

٢٧- ديوان الشنفرى: عمرو بن مالك(نحو ٧٠ق.هـ)،تحقيق/ إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ. ١٩٩٩م.

٢٨- ديوان طرفة بن العبد، تحقيق/ درية الخطيب، ولطفي الصقال، مطبوعات اللغة العربية – دمشق، سنة ١٩٧٥م.

٢٩- ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق/ حسين نصار، مطبعة البابي الحلبي – القاهرة، سنة ١٩٥٧م.

٣٠- ديوان عنترة، تحقيق/ عباس إبراهيم، دار الكتاب العربي- بيروت،ط٢، سنة ١٩٨٨م، وشرح ديوانه للخطيب التبريزي، تحقيق/ مجيد طراد، دار الكتاب العربي بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

٣١- ديوان لزوم ما لا يلزم، لأبي العلاء أحمد بن سليمان التنوخي، رواية الإمام التبريزي، مراجعة / الإمام الجواليقي، تقديم وشرح وفهرسة / وحيد كبابه، وحسن صمد، ٥٣٦/٢، دار الكتاب العربي، ط١، سنة ١٣١٦ هـ.

٣٢- ديوان مجنون ليلى، تحقيق/ عبد الستار أحمد فراج، مكتبة ودار مصر للطباعة والنشر (بدون).

٣٣- ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) دار الجيل – بيروت، (د/ط،ت).

٣٤- ديوان مكزون السنجاري، تحقيق/ هاشم عثمان، منشورات مؤسسة النور للمطبوعات – بيروت (بدون).

٣٥- ديوان النابغة الذبياني، تح/ عباس عبد الستار،ص ٩٦، دار الكتب العلمية – بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ. ١٩٩٦م.

٣٦- شرح ديوان أبي الطيب المتنبي لأبي العلاء المعري(ت٤٤٩هـ)"معجز أحمد"، تحقيق/عبد المجيد دياب، ط٢، دار المعارف. مصر، سنة ١٩٩٢م.

٣٧- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، صنعة /أبي العباس ثعلب، تحقيق/حنا نصر الحتي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط١، سنة ١٤١٢هـ. ١٩٩٢م.

٣٨- شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي . بيروت . سنة ١٩٣٨م.

٣٩- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، للأنباري: أبي بكر محمد بن القاسم، تحقيق/ عبد السلام هارون، دار المعارف،ط٤، سنة ١٤٠٠هـ. ١٩٨٠م.

٤٠- الشعر والشعراء، لابن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، تحقيق/ الشيخ حسن تميم، ومحمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم – بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٤١- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت

٤٢- الصناعتين، لأبي هلال العسكري (٣٩٥هـ)، تحقيق/ علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية – بيروت، سنة ١٤١٩ هـ.

٤٣- العُودُ الهِندِيُّ عن أَمَالِيّ في دِيوَان الكِنْدِيّ،" مجالس أدبية في ديوان المتنبي، تأليف علامة حضرموت السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف(ت ١٣٧٥هـ)، عُنِيَ بِهِ / محمد مصطفى الخطيب، دار المنهاج، الطبعة الثانية، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م.

٤٤- الغصن الذهبي، جميس فريزر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة سنة ١٩٧١م.

٤٥- اللسان، لابن منظور، دار الحديث – القاهرة، طبعة سنة ١٤٢٣هـ. ٢٠٠٣م.

٤٦- المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشيهي شهاب الدين، تحقيق/ عبد الله أنيس الطباع، دار العلم للملايين – بيروت.

٤٧- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تحقيق/ الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية – تونس، ١٩٦٦م.

٤٨- موسوعة أساطير العرب عند الجاهلية ودلالاتها، محمد عجينة، دار محمد على للنشر ودار الغاربي للنشر – بيروت، ط٢، سنة٢٠٠٥م.

٤٩- موطأ الإمام مالك، لمالك بن أنس المدني (المتوفى: ١٧٩هـ)، صححه/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث – بيروت، سنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥م.

٥٠- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لشهاب الدين المقري التلمساني،تحقيق/ إحسان عباس، دار صادر- بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٧م.

٥١- نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين النويري، دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة، ط١، سنة ١٤٢٣هـ.

٥٢- الهمدنيون شعر همدان وأخبارها، تحقيق/ حسين أبو ياسين، دار العلوم – الرياض، سنة ١٩٨٣م.

٥٣- الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، تحقيق/ أحمد الأرنأووط، وتركي مصطفى،/ دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ. ٢٠٠٠م.

فِهْرِسُ المُحْتَوَيَاتِ وَالمَوْضُوْعَاتِ

م	الموضوع	الصفحة
	المُقَدِّمَةُ	٥٥٥
	المبحث الأول: الدلالات اللغوية والمعرفية والدينية	٥٥٦
	أولاً: دلالات الدم.	٥٥٦
	ثانياً: دلالات الماء.	٥٦١
	المبحث الثاني: سمات لفظ الماء.	٥٦٧
	أولاً: تعدد جموعه.	٥٦٧
	ثانياً: تعدد مصادره.	٥٦٩
	ثالثاً:تعدد صفاته.	٥٧٥
	رابعاً: التقلب والتلون	٥٧٨
	المبحث الثالث: علاقة الماء بمعاني القوة في شعر أبي الطيب المتنبي	٥٧٩
	المبحث الرابع: صورة الماء والدم في شعر أبي الطيب المتنبي	٥٨٩
	الصورة الأولى:العلاقة التبادلية بين الماء والدم	٥٩٠
	الصورة الثانية: العلاقة الدلالية بين الماء والدم	٥٩٦
	الصورة الثالثة:غياب لفظهما وحضور دلالتهما	٦٠١
	الخاتمة	٦٠٥
	فهرس المصادر والمراجع.	٦٠٦
	فهرس المحتويات والموضوعات.	٦١٢